رواية

الطاهر بنجلون

البَلَد

ترجمة: عبد الكريم الجويطي



المركز الثقافي العربي

الطاهر بنجلّون

البلد

رواية

ترجمة: عبد الكريم جويطي


المركز الثقافي العربي

العنوان الأصلي للرواية:

AU PAYS

Tahar Ben Jelloun

الكتاب

البلد

تأليف

الطاهر بنجلّون

ترجمة

عبد الكريم جويطي

الطبعة

الأولى، 2010

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-483-9

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 522 ـ 307651 522

فاكس: 305726 ـ 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01750507 ـ 01352826

فاكس: 01343701 ـ 961+

www.ccaedition.com

Email: cca@ccaedition.com

1

حين أنهى محمد صلاة العشاء، بقي جالساً، بركبتين مثنيتين، فوق السجادة الصغيرة المنسوجة من مواد اصطناعية. كان يحدق في ساعة بلاستيكية، صنعت في الصين، معلّقة على الحائط المقابل له. لم يكن ينظر إلى عقاربها، وإنما إلى صورة تحيط بالمينا: حشود من الناس بلباس أبيض تطوف بالكعبة على خلفية سماء مليئة بالطيور والملائكة. تذكر حَجَّه الخاص والذي احتفظ منه بذكريات مخففة، إذ بقدر ما كان منفعلاً وسعيداً طوال صلواته، بقدر ما عانى من التدافع وعنف بعض الحجاج. لم يفهم لماذا يتدافعون، ولماذا يدوسون بعضهم بعضاً، حتى أنهم يتسببون بحوادث تنتهي بسقوط عدة قتلى. لقد فهم بسرعة أن الديار المقدسة تقلب رأساً على عقب إدراك الأشياء. فالناس لا يعودون هم أنفسهم أبداً، ولا يملكون أنفسهم. يدخلون بيسر في جذبة ويفقدون الوعي متشوّفين هكذا بأمانيهم لموت طالما عظّمه هذيان الدجّالين. رجال أكثر قوة منه، يموتون بأقدام جبابرة، يضربون ضربات عنيفة حتى يتسنى لهم المرور من دون أن يكترثوا ولو حتى بالعودة لرؤية ما أحدثوه.

يواصلون سيرهم ورؤوسهم وأعينهم مرفوعة إلى السماء كما لو أن السماء اشترطت عليهم هذه الحَميَّة البربرية. يموت الضعفاء، ممدَّدين على الأرض، معفَّرين بالتراب والدم. ولا نظرة تلقى عليهم من أجل صلاة أخيرة. لم يكن بالإمكان تجنب هذه المشاهد في هذه الديار التي تمتلئ في بضعة أيام بأكثر من مليوني مؤمن يأتون للتطهر من ذنوبهم، ليعودوا إلى بلدانهم راضين وممتلئين بفضائل غنموها من إيمانهم. هذه المشاهد لا تروق للناظر. محمد يخاف الحشود، فهي حين تكون متعصبة تصير خطرة. من الأحسن أن يتجنبها المرء، وألا يكون في مواجهتها أو يعترض اندفاعها. كان في المعمل يشارك في الإضراب مثل رفاقه، لكنه لا يجرؤ على رفع لافتة في يده والتظاهر في الشوارع أو الأزقة.

كان محمد يحلم بحج يكون فيه بمفرده، بمعية بضعة أشخاص من قبيلته، في فصل الربيع فقط. ولأنه يخاف التصرّفات العنيفة، فقد كان يخاف الموت في مكة. ربما كان الوحيد الذي فكر هكذا، لكنه لم يفصح عن ذلك. كان يخاف الموت تحت الأقدام المتعصبة. يتخذ إزاءها مسافة ويلاحظ. ماذا تشبه قدم متعصبة؟ إنها قذرة، حافية أحياناً، وتنتعل أحياناً أخرى بلغة ممزقة. لقد التقى بمنتعلين لبلاغي في وضعية سيئة. لم يكونوا من بلده، ويتكلمون لهجة عربية لا يفهم منها كلمة واحدة. لكن من أين أتوا؟ بالنسبة له، المسلم هو عربي أو أمازيغي. وكان يجد صعوبة في اعتبار الحجّاج الآخرين مسلمين. كان يسمّيهم الأفارقة، الصينيين، ثم الترك. كل

الحجّاج كانت أعينهم مسكونة بالنار، شعلة الإيمان، والتعلق بالإسلام. وكان يتساءل لماذا كانت عيناه هادئتين ووديعتين، كان طبعه كذلك. تمنى طويلاً القيام بهذا السفر، حلم به، وربما أفرط في حلمه، إذ ليس له، وببساطة، أشياء كبيرة لتحقيقها. كان يفكر في مستقبل أولاده، وحين يتعلق الأمر بهذا يصير مكتئباً، حزيناً، ضائعاً. لذا فهو يؤدي الصلاة والشعائر بهدوء غريب. ذات صباح، وهو يخرج من المسجد الكبير، لم يجد بلغته الجديدة المصنوعة في فاس. اندهش لكونه سُرِق من طرف حاج آخر، لم يفهم هذا ولم يستسغه. لكن غضبه تراجع حين حكى له رفيقه في الغرفة أن عصابات تهاجم الحجاج كل يوم، وتسلبهم نقودهم. وأضاف: حين يُقْبَض على أحدهم تقطع يده. زد على ذلك، في منتصف النهار هذا، وفي وقت الصلاة، بعض الأيدي ستقطع أمام أنظار العامة. أنت مدعو إلى هذا المحفل! في الأسبوع الماضي جُلد يمني لأنه أخلّ بالاحترام الواجب لابن الأمير. وفي السنة المنصرمة حكم على نصراني بالإعدام لأنهم باغتوه وهو في رفقة فتاة من عائلة سعودية كبيرة. لا ينبغي لمسلمة أن تخالط، ولا أن ترى في السر رجلاً غير مسلم ولا أن تتزوج به. لا نمزح هنا. لهم قوانينهم، ويقولون بأن كل ذلك موجود في القرآن، ثم يعملون بذلك. لا نقاش في الأمر، ولا حق لنا نحن، نحن نجيء لنترحم على رسولنا المحبوب في قبره، نصلي، نؤدي شعائرنا ثم نعود إلى ديارنا، إن لم نمت دوساً بالأقدام، أو نعود بيد ناقصة، إذ قد يخطئون ويتهمونك

بالسرقة، ثم وفي لمح البصر تجد نفسك بلا يد. هذا ما نسمّيه العدالة السريعة. لا وقت للتفكير. وفي كل الأحوال يُنصح المرء بشدة بألا يفكر. هنا نمنح أنفسنا لله، لا نتردد، لا نشك، نحن ملك لله، والله يفعل بنا ما يشاء. أتفهم يا صديقي؟ كان محمد يعتبر أن قطع يد بسبب سرقة بلغة أمر مبالغ فيه، بل إنه ينم عن بربرية. نظر طويلاً إلى يديه المفتوحتين وقال لنفسه: بدونهما ما كنت لأكون شيئاً، ولا حتى متسولا، ليحفظنا الله من الشرور والأحزان. مدّ له متسول جذعة. أخذ محمد ورقة نقدية ووضعها في جيبه. كان يود أن يتحدث معه، لمعرفة قصته. ربما فقد يده في حادثة، أو أنه كان ضحية خطأ، لكن المتسول اختفى.

كان يبدو في حال سيئة كلما حكى عن حَجِّه لمغاربة، فيعمد بشير الذي يتذوق بيرة باردة جداً، والذي يدلي بدلوه حول كل شيء، إلى إعطائه درساً: لا ينبغي لمسلم أن ينتقد ما يحدث أثناء الحج. ينبغي ترك هذا لأعداء الإسلام، لأولئك الذين يريدون رؤيتنا متخلفين دائماً، ومحتَقَرين دائماً، وقذرين، ولاإنسانيين. وقد نجحوا في إلصاق وصمة إرهابي بكل مسلم. نحن، وببساطة، منذورون للجحود أو الرجوع القهقرى، لذا ينبغي نسيان النقد، ولو كان ما تحكيه صحيحاً، وإلا لن نناديك يا حاج أبداً.

تجرأ محمد على القول بصوته الخافت: لكننا إن لم ننتقد أنفسنا فلن يصلح حالنا.

وا أسفاه! سأسكت وسأتمنى لكم سفراً طيباً، وحجاً

مبروراً، وسعياً مشكوراً، أما أنا، إن عدت، فسيكون ذلك خارج وقت الحجّ. سأكتفي بالعمرة، الحجّ الصغير.

ينبغي أن نتعلم التسامح. أترى، مثلاً، أنت تشرب الخمر، وأنا لا أقول شيئاً، هذا شغلك، ولا أذكِّرك بالتعاليم الأخلاقية. لذا توقف عن الاعتراض على أولئك الذين لهم شجاعة نقد أنفسهم!

أخرجته ذبابة كبيرة، كانت تطن، من ذكرياته، ذبابة عمياء ترتطم كل الوقت بالحائط. فكّر في إنقاذها. لكن ذلك كان متعذراً، كانت تدور في تلك الغرفة كما لو أنها، هي أيضاً، سجينة. رفع رأسه كأنه يستجيب لنداء. بدت عليه مسحة مَنْ يسمع صوتاً، ضرب من وشوشة منفلتة من ثغرة في الجدار. ثلمة لم يعد الورق المصور الذي يعود لسنوات الستينات يسدها أبداً. بلغت العمارة درجة من التلف حتى إن البلدية، كما شركة هـ. ل. م، حذفتها من قائمتها. هناك عدة أشغال كان من المطلوب القيام بها، وخصوصاً منذ المجيء الكثيف وغير المنظم لمهاجرين أفارقة جدد: فالتمازج بين المغاربة والأفارقة لم يتم بصورة جيدة. الشتائم العنصرية تطلق من الجانبين متبوعة بعراك بين صبيان المجموعتين. لم يعد محمد يعرف هل يولِّد العنصريّة لون الجلد، أو يولدها الفقر.

يذكر عمه العجوز الذي كان يدير تجارة في إفريقيا، والذي جلب معه من هناك امرأة سينغالية. كان كل من في القرية يعتبرها أَمَة، أقل من لا شيء. كان آنذاك طفلاً، لكن المشهد ما

زال مطبوعاً في ذاكرته إلى الآن. أرسلت المرأة الإفريقية، التي لم تكن تتكلم الأمازيغية ولا العربية، إلى القرية في غياب العم الذي ذهب للعمل في الخارج. وكل القرية تألبت ضدها، لأنها كانت سوداء، ولأن الناس لم يكونوا يفهمون ما تقول. لقد هربت مشياً على الأقدام، ولا أحد سمع بأخبارها. ما زالت هذه المرأة التي لم يعد أحد يتحدث عنها تتسكع في ذكريات طفولة محمد. كان يتساءل أين توجد الآن؟ هل ماتت؟ هل عادت إلى أهلها؟ لم يعرف شيئاً، وانتهى به التفكير إلى أن هذه المرأة كانت امرأة أبدية، وأنها لن تموت أبداً. كانت العنصرية ترعبه، وبفعل هذه الذكرى. كان متقيناً أن لون الجلد والفقر يجتمعان بيسر ليبعدا كائناً بشرياً، خطؤه الوحيد أنه ليس غنياً ولون جلده داكن. الأمر بديهي بالنسبة إليه. في المرة الأولى التي سمع فيها كلمة «بونول»، كان ذلك في قطار وكان أحد المراقبين يعنّف جزائرياً عجوزاً لم يتمكن من العثور على بطاقته. لم يعرف معنى الكلمة، لكنه فهم بأنها سبّة، شيء غير لطيف. وقف الجزائري، وبدأ ينزع ثيابه كما لو أنه أمر بتفتيش نفسه. قال له المراقب: طيب، طيب، البونول لا يفهم أي شيء أبداً.

كان محمد يودّ بشدة أن يغادر هذا المنزل. لكن قراراً كهذا كان سيخلق له عدة مشاكل، وسيبعده عن أبنائه. كان يتحمل ذلك الجحيم اليومي، ويحرص على أن يُبعد أولاده عن المواقف العنصرية. كان يقول لأطفاله: يجب أن تفهموا، إنهم

أناس مختلفون عنا، إنهم أكثر فقراً منا، وأكثر عدداً، لكنهم ليسوا سيئين، لذا كونوا متسامحين. لكن الفقر، وانعدام الأمن، والاحتكاك أمور لا تترك للحوار والتسامح مكاناً. فالناس يعيشون على أعصابهم، ولا يتحكمون في أي شيء.

ما عادت تسكن في هذه العمارة ولا عائلة فرنسية واحدة.. هرب منهم من استطاع، من دون تدخّل من الشرطة.
كان محمد يحلم دائماً بدار، دار جميلة وكبيرة حيث تجتمع كل العائلة بسلام وسعادة واحترام، دار محاطة بالأشجار والحدائق المليئة بالنور والألوان، دار مفتوحة، هادئة حيث لا يحسون بأنفسهم على أحسن حال، فقط، وإنما تحل فيها المشاكل والمعوقات والخصومات بضرب من السحر. ستكون قطعة من الجنة يُسمع فيها خرير الماء وحفيف الأشجار. إنه حلم عنيد، لكنه كان يعرف أنه سيحققه يوماً ما. لم يكلم أحداً بصدده، حتى زوجته التي كانت تعتبره مجنوناً ظريفاً، وحالماً لا صلة له بالواقع. كان يحتفظ لنفسه بأحلامه وأفكاره، ولم يكن يتكلم كثيراً. صار يتشكى من ارتفاع الأسعار، لم تعد أجرته تكفيه أبداً. قبل الآن، منذ زمن بعيد، كنت أوفر، أما اليوم فكل ما يحصّله يُصرف بسرعة كبيرة. لا أفهم شيئاً. ثم كان يصمت.

وحيداً، غمغم، أيضاً، بضع آيات من القرآن، ثم أحس بشيء ما يثبّته، ومن المستحيل أن يقف. أحس بنفسه ثقيلاً كأنه يحمل على عاتقه وزراً. حاول الحركة، لكنه لم يتمكن من تمديد ساقيه. أرخى رأسه فأحسّ بنوم خفيف يغشاه. قتلت

الذبابة نفسها. غرقت في كأس شاي. فكر في أنها كانت بليدة. كان الجدار يحدثه. مال رأسه مجدداً نحو الأمام. والصوت نفسه كان يحدثه بلهجته الخاصة. تراخت أعضاؤه. فتح القرآن وتظاهر بأنه مستغرق في قراءته. كان يحب رفقة هذا الكتاب، ولو أنه لا يعرف القراءة. كان يحب الخط الذي كتب به، وما يشبه الجلد الأخضر الذي غُلِّف به، وكل جسامة وجوده. كان الكتاب الوحيد الذي حمله معه يوم غادر باتجاه المغرب.

كان ملفوفاً بقماش أبيض، قطعة من الكفن الذي كُفِّن به والده. كان هذا الكتاب كل شيء بالنسبة له، ثقافته، هويته، جواز سفره، فخره، سره. كان يفتحه بلطف يضمه إلى قلبه، يرفعه إلى شفتيه ويقبّله بخجل. كان يقول بأن كل شيء فيه، وأولئك الذين يعرفون قراءته يجدون فيه كل فلسفة العالم، كل تفسيرات العالم. لم يكن يوقن بذلك بصدق فقط، بل إن عالماً، وهو إمام مسجد إيفلين، أكد له ذلك بحزم: فالله خلق الكون، وبعث الرسل لمخاطبة الرجال والنساء. يعرف ما يفكر فيه كل واحد منا. يعرف حتى ما نجهله، وما هو مخبّأ في دواخلنا. طيب، أتفهم أن القرآن هو مفتاح العالم، وليس صدفة أن مزيداً من الشعوب تعتنق الإسلام. إننا نصير أكثر عدداً، وهذا ما يخيف أمريكا وأصدقاءها، أتفهم؟ لدينا كنز وهذا يزعجهم. يريدون أن يروا المسلمين غارقين في البؤس، أو بقنبلة مشدودة إلى الخصر، هذا هو الإسلام بالنسبة لهم، البؤس أو القنبلة. إنهم يغارون من النجاحات الكونية لديننا. أرأيت هذا الوغد الذي رسم رسولنا عليه الصلاة والسلام بعمامة

مليئة بالقنابل! أرأيت ذلك؟ فهم يريدون إثارتنا، إذلالنا، تسفيهنا، لكن الله ينتظرهم، سيأتون إليه زاحفين يرجون مغفرته. لكي لا يلقون في جهنم وإلى الأبد. الله أكبر وكلامه هو الحقيقة الوحيدة! كان بودّه أن يجيبه، ولكنه لم يمتلك الشجاعة لأن يقول له، مثلاً، بأن أغبياء مثله هم الذين يمدحون الجهاد، ويتحدثون عن الجنة والشهداء. إنهم متخلفون مثله من يَبعثون إلى الموت، شباناً لا يعرفون ما يتعلقون به. إنهم كذابون، منافقون أولئك الذين يدفعون هؤلاء الشبان إلى أحضان الموت، وهم يقولون لهم: ستكونون شهداء حقيقيين. شهداء يشبهون في صدقهم وطيبتهم شهداء عصر الرسول. وستدفنون بثيابكم المعفّرة بدم التضحية، لا بكفن، ولا موت تافه. ستذهبون مباشرة عند الله الذي ينتظركم في الجنة! اغتسلوا وتوضأوا قبل ذلك، فمن الأفضل الدخول إلى دار الآخرة طاهرين، وجاهزين للصلاة الأبدية... لقد سمع بحكاية الكاريكاتير هذه، لكنه لم يعرها أي اهتمام. فالرسول بالنسبة له روح، وليس وجهاً يمكننا رسمه. كان يؤمن بهذا بعمق، وهذا بديهي، وكما هي العادة احتفظ بأفكاره لنفسه. لا يفصح وجهه عن شيء محدد. فقط ذلك الحزن الهائل الذي يتخذ شكل إذعان شرير لا يملك القدرة على مواجهته. كان يَوَدّ لو أمكنه الاستغراق في قراءة القرآن ومناقشة تأويلاته ومعانيه، لكنه يعرف أنه محكوم بهذا الجهل الذي التصق بجلده منذ الطفولة. كانت سعادته تتمثل في رؤية أطفاله ينجزون فروضهم فوق طاولة الطعام قبيل العشاء بالضبط. كان ينظر إليهم بحب، وبقليل من

الحسد. كان يحب أن يصطحبهم إلى السوق لكي يشتري لهم أدوات وكتب الدخول المدرسي. لم يكن يخطئ أبداً هذا الموعد السنوي، حيث يكون الأطفال مُسْتَثارين. كان يأخذ يوم عطلة ليرضي كل طلباتهم. وفي البيت كان يساعدهم في تغليف الدفاتر والكتب. يخصص لهم مكاناً ليضعوا فيه كتبهم.. وكان يعيد تصفيفها دائماً، وينظفها من الغبار.

لم يكن يستطيع قراءة القرآن. لكنه كان يعرف أن الله يندد بالمنافقين والقتلة، فقد حفظ ذلك عن ظهر قلب، مثله مثل أطفال البلد. كان يتلو ما حفظه بشكل آلي، يخطئ أحياناً، فيستغفر الله. ثم يعيد التلاوة من بداية السورة، ولا يتوقف إلا عند نهايتها. لا ينبغي التردد أو التوقف، وإلا سيفقد الخيط الرابط بين الآيات. وحده إمام إيفلين كانت له القدرة على تلاوة آية وشرحها. إنه يحفظ الكتاب كله، ويقول إنه درسه في القاهرة في جامعة الأزهر الكبيرة. ربما كان هذا صحيحاً. لا أحد يملك الوسائل للتأكد مما يدّعيه. لقد سقط هذا الإمام من السماء. ولا أحد تنبه لوصوله، فأحاط نفسه بحاشية من الشبان المنحرفين الذين قرروا السير مجدداً على الصراط المستقيم، كان يناديهم بأبنائه. كان يملك سيارة كبيرة، ويلبس ثياباً بيضاء جميلة، ويتعطر بروح خشب الصندل، ويسكن خارج الحي الجهنمي. ادعت الإشاعة أن له زوجتين ودزينة من الأطفال. يفترض أنه كان يتلقى أموالاً من بلدان غنية. كان يكلم الناس بالعربية الفصحى، وأحياناً بالفرنسية التي كان يسيء استعمالها،

فينظر المغاربة بعضهم إلى بعض ويتساءلون: لكن ماذا يظننا هذا؟ من أين أتى؟ من أجّره؟

كانوا يشكّون في أنه مصري في خدمة السعوديين. المغاربة يَحْذَرون أولئك الذين يأتون من الخليج العربي. أولئك الذين، منذ سنوات، جاؤوا إلى المغرب، وخصوصاً إلى طنجة، ليغلقوا على أنفسهم في الفنادق مع الفتيات وصناديق الكحول. سمع محمد، مراراً، كلاماً عنهم. لم يرهم قط، لكن أشياء كثيرة قبيحة، قيلت عن هؤلاء الناس الذين يرتدون الأبيض، ويقترفون الإثم في البلد. بل إن شائعات شاذة وغريبة كانت تدور حول ليالي التهتك الجماعي هذه. يحكى أن وزيراً أعار زوجته الجميلة لأمير خليجي نافذ أعجب بها، فعادت إلى البيت بثدي ناقص. فالأمير قام بعضّ الثدي ثم أكله. لا أحد، بطبيعة الحال، رأى هذه المرأة مبتورة الثدي، ولا أحد حصل على دليل يثبت ما قيل. ولكن كما يقال: «لا دخان...». إنهم يأكلون لحوم النساء الجميلات. هكذا ينظر إلى أهل الخليج في المخيال الشعبي. أناس يرضعون أثداء نساء جميلات، وأحياناً يذهبون إلى ما هو أبعد من ذلك.. تحكى في المقاهي قصة أخرى لا تصدق: لكي يدخل حماماً تنكّر قريب لسائق أمير في هيئة امرأة، وبعد تبيان أمره، ضُرِبَ من طرف النساء اللواتي أفرغن سطول ماء حارق على أعضائه الجنسية. خرج الرجل، من هناك، مولولا وخصيتاه في وضع يرثى له. حُكيت حكايات حول هؤلاء الناس، حتى تدخلت الدبلوماسية، في النهاية، لتضع حداً لهذه المُلَح السيئة.

لكثرة تحديقه في الحائط، تولّد عند محمد انطباع بأنه يقترب منه، أو بالأحرى أن الحائط يتقدم نحوه. أحس بنفسه أسير هذه الغرفة الصغيرة التي لا يدخلها الأطفال أبداً. خال أنه فهم أن الصوت يتحدث له عن التقاعد. . كانت كلمة تقاعد تدور في الهواء مثل الذبابة الكبيرة التي ظهرت سابقاً. كان عقله في مكان آخر. في مكة أو في مسجد طفولته. لقد عاد به إلى القرية في الزمن الممتقع لعزلة غريبة. حلق له الجزار، الذي يقوم بدور الحلاق، رأسه بسبب القمل والجرب وأمراض أخرى. كل الأطفال حلقوا رؤوسهم، مرر الجزار يده فوق رأسه وصادف ما يشبه دملاً لم يتم معالجتها بشكل جيد. كان لهذا الزمن رائحة فلي-طوكس والمسحوق المضاد للقمل، له رائحة خانقة. كان له أيضاً طعم العسل الخالص وزيت أركان. ما زال يتذكر جيداً تلك الوجبات. فبعد أن يخرج البهائم، تأتيه ابنة عمه بصينية شاي بالنعناع شديد الحلاوة، فطيرة بغرير، زيت وعسل ومن حين لآخر قليل من أملو، خليط من اللوز ممزوج بزيت أركان، وبعض التوابل. يحدث هذا في الصباح النديّ الصامت. صارت ابنة عمه زوجته بشكل طبيعي. لم يكونا يتكلمان تقريباً، كانا ينظران أحدهما إلى الآخر. تنكّس نظرها ثم تختفي. ذات يوم كان أخوها الصغير من جاءه بالأكل، ففهم أن وقت طلبها للزواج قد حان. كانت صغيرة جداً. بالكاد بلغت خمس عشرة سنة، ورغم ذلك تزوجا في الصيف التالي. ذكريات ناعمة، مليئة بالحنان والخجل، والوئام. . وكانت هناك فترات صمت تدوم صباحات برمّتها.

وكان يحب هذه الفترات فينقاد إلى الأحلام. لتنشيط حفل الزواج، انتقى أفضل مغنٍّ في المنطقة بشيخاته وموسيقييه، فغنوا ورقصوا حتى الفجر. كانت الشيخات سوقيات، محترفات، حاذقات. ينضحن برائحة كبش القرنفل. اعتُبر محمد أمير الليلة. أخذ زوجته إلى بيت والديه اللذين، وبدافع الحشمة، سيتغيبان. كان ينبغي ترك العريسين وحدهما. نزل الصمت مجددا، مثل ليل قصير، على الزوجين الشابين. صلّى ثم أطفأ الشمعة. مر كل شيء في الظلام. كان خجلاً جداً، ومن دون تجربة خصوصاً. فبالنسبة له، كما بالنسبة لها، كانت بالطبع التجربة الأولى. انقاد لغريزته ورسم الدم أشكالاً بديعة في الملاءة. وكان الشرف موفوراً. دام العرس بضعة أيام، ثم عادت القرية إلى مجرى أشيائها المعتادة.

كان محمد يفكر منذ مدة في الالتحاق بعمه المهاجر إلى شمال فرنسا. كان يلزمه جواز سفر، هذا الكناش الأخضر الصغير الذي رسمت في وسطه النجمة المغربية. كانت هذه الوثيقة لا تعطى، في تلك الفترة، إلا للعائلات المدينية الميسورة. ومن حين لآخر، كان القائد يتلقى أمراً من الرباط: هناك حاجة إلى مئة وأربعة رجال أشداء وفي صحة جيدة من أجل فرنسا. يصلون إلى القرية في جيب للدرك، يُرى، من بعيد، بفعل الغبار الذي تستثيره السيارة. كان القائد يأخذ نفسه مأخذ الجد، يقدم له الطعام والشراب ثم يطلب من الرجال أن يمروا أمامه. كان، في كل شيء، يقلّد ما كان الفرنسيون يقومون به في المرحلة الاستعمارية، إنه بالكاد يعرف القراءة،

لكن ذلك لم يمنعه من أن يضع، بين يديه، ملفاً كان يتفحصه من حين لآخر. فرنسيس تنتظركم. لا تجلبوا لنا العار، كونوا رجالاً، جنوداً، وخير ممثلين لبلدنا! ثم كانت سيارة الجيب ترحل مخلفة وراءها سحابة من غبار حمراء، ويضع زوجات باكيات.

2

كان الصوت ملحّاً، إنه يحدثه الآن بالفرنسية، تلك اللغة التي انتهى إلى فهمها، لكنه لم يكن يستعملها، فمن أجل أطفاله، فقط، تعلم بضع كلمات، لأنهم لا يخاطبونه إلا بالفرنسية، مما كان يجعله تعيساً جداً. رغم أنه لقّنهم بعض مبادئ الأمازيغية، لكن ذلك كان بلا طائل. كانوا يصرّون على استعمال الفرنسية، ويسخرون من لكنته وأخطائه.

والآن، جاء دور الصوت المجهول ليحدثه بهذه اللغة، ليكرر كلمة كان يعرفها جيداً، ولكنه لم يكن يريد أن يناقشها. كان الأمر هكذا. تلك الكلمة التي لم يكن يريد سماعها. تلك الكلمة التي تتردد كحكم قضائي. تلك الكلمة التي تعلن ذلك اليوم المقدَّر الذي يريد أن يرجئه إلى ما بعد، إلى أبعد تاريخ ممكن. لم يكن الأمر يتعلق بالموت، إنه شيء يقترب منه، ولا يتعلّق بمكة، لطالما خشي بقوة هذا اليوم، تلك اللحظة. لم يكن الأمر يتعلق بسفر، ولا برحلة صيف، ولا بنزهة طويلة وجميلة في المدينة المنورة خارج فترة الحج الرسمي. لا، الصوت يؤشر له إلى شيء مضبوط بدقّة، نهائي، ولا مردَّ له:

التوقف عن العمل. التوقّف عن إيقاع سار عليه منذ ما يزيد على أربعين سنة. تغيير عاداته، فلن يصحو في الخامسة صباحاً، ولن يلبس وزرته الداكنة. التكيف مع حياته الجديدة، تغيير الجلد، العقلية، إلحاق الأذى بعاداته القديمة التي كانت تقوم مقام العكاز الذي يمنحه معالم ارتكاز. فأن تتوقف عن العمل، هو أن تتعلم كيف تضجر بشكل ودود، هو أن تتعلم ألا تقوم بأي شيء، ومن دون أن تسقط في براثن اليأس. لم يكن العمل، ربما، يجعله سعيداً، لكنه كان يشغله ويمنعه عن التفكير. الخوف من أن يتوجب عليك صعود جبال أهرامات من الحجر. الخوف من أن تسقط في وادي العبث. الخوف من أن يواجه كل واحد من أطفاله الذين لم تعد له أي سلطة عليهم. الخوف من أن يقبل حياة لم يعد يضبط فيها أي شيء. كان في الروتين، ذلك الخط المستقيم الذي لا شيء يأتي لتحويله أو تشويشه. لقد شكّل ذاته، ولا يريد أن يتغير. لا يريد شيئاً آخر. كان كل شيء يبدو له صعباً، معقّداً، وكان يعرف بأنه لم يكن مهيئاً للمنازعات، للعراك. لم يتعارك أبداً، حتى وهو طفل كان يبقي نفسه بعيداً، يرى الآخرين يتعاركون ثم ينسحب، ويتساءل لماذا كل هذا العنف، في هذا المكان البعيد عن المدينة والمنسي من الله. كان العمل يبعده عن هذه الأفكار. وفي الليل كان يعوّل على تعب عضلاته لكي ينام سريعاً، ويتلافى الجبل الشهير الذي ما ينفك يكبر، أحياناً يأتيه مصحوباً بهزيم الرعد، وينصبّ على ظهره ويدفنه. كان يرى أحجاراً ثقيلة تتراكم فوق جسده تمنعه من التنفس، وهو غير قادر على الحركة ولا على الدفاع عن

نفسه. لم يكن مريضاً، كان فقط منزعجاً، ومرتبكاً. ينسحب الجبل ويتركه على وشك الموت. يصحو، يشرب كوب ماء كبير، وينتظر طلوع النهار، وهو جالس في المطبخ. ولكي يشغل نفسه، كان يحدث أن ينظف الأرضية التي كانت نظيفة، وهي من بلاستيك رسمت فوقه أرضية خشبية. كان يصقله بقطعة قماش مبللة. يرتب الأشياء في المستودع الصغير للتموين، يفتح الثلاجة، ويسجل في ذهنه ما ينقص. يحضّر لنفسه الشاي ويحدق في السماء، وهو ينتظر أول شعاع للشمس. لم يكن يفكر في أن الساطور سيسقط بهذه السرعة والقسوة الشديدتين. كان متعباً وضائعاً شيئاً ما، وكان الاكتئاب قد حل سلفاً لأنه لم يكن قادراً على الإفلات من التقاعد أو بالأحرى «لانتريت» كما كان يسمّيه. حاول أولاده مراراً أن يصححوا له ذلك، وكان يواصل القول «لانتريت» عوض «لاروتريت» أو حتى المعاش. إنه العدو غير المرئي، العدو الغامض، فإن كان بالنسبة للبعض مرادفاً للحرية، فبالنسبة له كان مرادفاً لنهاية حياة، لا أقل ولا أكثر، نهاية كل شيء، نهاية خط القطار، نهاية العطلة المدفوعة الأجر والتي يقضيها كل سنة في البلد. عطلة مستحقة جداً. كان في سلام مع وعيه، هو الذي اشتغل جيداً وكسب قوته، هو الذي يمجّ النقود السهلة، الغش والغشاشين، ويأنف من الخداع والسمسرات القذرة. كان يلاحظ كيف يعيش من حوله أطفال بعض رفاقه، ويعرف التعبير «سقط من الشاحنة» لكي لا يقال عن الشيء بأنه إخفاء مسروق أو نشل. بل إنه، ولهذا السبب، منع أطفاله من شراء أي شيء

«يسقط من الشاحنة». في اليوم الأول من يوليوز كان يملأ السيارة بالحقائب والهدايا، ويستقل الطريق دفعة واحدة مثل طائر مهاجر يستميت في اللحاق بالآخرين. كان يقود السيارة بحماسة، من دون سرعة. يتوقف قليلاً هنا وهناك، ولا يكون سعيداً إلا حين يصل إلى القرية التي تبعد ألفين وثمانمائة واثنين وثمانين كيلومتراً عن إيفلين. كان الأطفال وأمهم نائمين. هو وحده كان يشق طريقه بانتظام لا غبار عليه. كان يحدث أن ترافقه في الطريق عائلة أخرى. تترافق السيارات، لكن في قرارة نفسه كان يفضل أن يقوم بالرحلة وهو المتحكم الوحيد في القيادة. كان يقود السيارة بفكرة واحدة تشغل باله: الوصول مجدداً إلى داره في القرية، الوصول في أفضل وقت لتوزيع الهدايا، والذهاب في الصباح إلى قبريْ والديه. ارتياد الحمام، حيث يدلكه مسعود. أكل فطائر بغرير التي تصنعها خالته العجوز. كان يقود السيارة، وكل هذا يتراءى له في صور بالألوان، مليئة بالنور. كان يبتسم بينما تنام زوجته في الكرسي المجاور.

-

كانت له في المصنع عاداته. يصل دائماً في الموعد، لا تأخّر ولا غياب أبداً.. ولو مرض، إلا حين تهزمه نزلة برد. كان يحرص على أن يكون هناك، يحرص على أن يعمل.. يأتي معه بأكله. يأكل سريعاً، يتمدد في دكة ويغمض عينيه. كان أصدقاؤه يسخرون منه، فيجيبهم بأنه في حاجة إلى هذه اللحظات التي يغفو فيها. إنها شعيرة لا تدوم أكثر من عشر

دقائق. كان منتظماً مثل الساعة. لا يخطئ، ولا يغضب أبداً. كان عاملاً مثالياً. في الواقع كان يخشى أن يخطئ في عمله فيوبِّخ، ولم يكن بإمكانه احتمال ذلك. في البداية كان يشتغل في قسم تجميع أجزاء السيارات، ثم انتقل إلى قسم الصباغة. كان الأمر أقل تعباً، ولكن أكثر خطورة. كان يحرص على وضع قناع على الوجه. لم تتأثر صحته. لم يكن يدخن، ولم يشرب قط قطرة كحول. جسم سليم سيلحق به الإفراط في شرب الشاي بالنعناع المحلى جداً ضرر مرض سكري في بدايته. التقاعد! لا، ليس بالنسبة له، وخصوصاً الآن، ما هذه الحكاية؟ مَنْ اخترعها؟ كان الأمر شبيهاً بأن يقال له إنه مريض، وإنه لم يعد مربحاً بالنسبة للشركة. مريض مرضاً لا شفاء منه، واستعداد لملل هائل. كان الأمر، هكذا، لعنة، رغم أنه كان يعرف أن عمالاً آخرين ينتظرون التقاعد بنفاد صبر. هو لم ينتظره أبداً.

لم يكن يفكر فيه، كان يرى أصدقاءه يذهبون، ثم يعلم بعد ذلك بأن الموت أخذهم. التقاعد كان بداية الموت. طرف النفق حيث يختبئ الموت. كان فخاً، باباً أرضياً، اختراعاً شيطانياً. . لم يكن يرى ضرورة له، ولم تقنعه الجوانب الإيجابية، وخصوصاً على الصحة. لا، كان على يقين بأن لانتريت له وجه الموت، ولكنه وجه مطليٌّ بالمساحيق. . شيء شبيه بمؤبد لن تكون نهايته إلا الموت. كان يفكر في الأطفال، ولا يتمكن من تصوّرهم، أو تحديد مكانهم في مخيلته. ثم كانت ذكرى إبراهيم التي انبثقت مثل شعلة في الظلام. إبراهيم

الذي مات منذ خمس سنوات بعد أن توقف عن العمل، لم يكن مريضاً، لكن لانتريت قتله. نعم، التقاعد، نهاية كل شيء، انعدام الفائدة المطلق، اللاشيء. فالصمت حكم عليه بالموت في سن الستين وبضعة شهور. كان الحكم، كالتالي: حكم بالتقاعد، حكم بالموت مللاً وعزلة. كان مفيداً، وحين تبقيه نزلة برد في السرير، حين يكون غير قادر على الوقوف، يعرف أن السلسلة ستكون في هذا اليوم أقل نجاعة، أقل مردودية. ذات مرة تعطلت سيارته، وحين فتح غطاء المحرك لكي يبحث عن سبب العطل، قال لنفسه: إنها سيارة نزلة البرد. فلأنه لم يكن هناك في ذلك اليوم. فثمة براغٍ لم يحكم إدخالها، وأجزاء لم يُضبط تركيبها. كان دقيقاً وحريصاً جداً في عمله، حتى إنه كان يتصور أن الشركة، وبوضعه في التقاعد، ستعرِّض نفسها للإفلاس. كونه نافعاً ومفيداً كان ضرورياً بالنسبة له، إلى درجة أنه كان يتساءل عن مصير المعمل بدون عمال مثل إبراهيم، ومثل جيب، الذي ترك العمل بين عشية وضحاها لأنه ربح في اللوطو 752302 فرنك، كيف ستستمر السلسلة بدونه هو الذي كان صاحب ضمير يقظ، وكان متطلباً جداً؟ تذكر محمد أن إبراهيم كانت له بنت واحدة تزوجت سينغالياً وهجرت عائلتها، تناقلت هذه الحكاية كل العائلات المغاربية في إيفلين وخارجها. أعطى ابنته لأسود! أسود خطف منه ابنته الوحيدة! وجد قادر اللاذع اللسان، في هذا، موضوعاً جيداً ليعبّر عن كرهه للأفارقة: السود والعرب لا يختلطون! الأمازيغ والسود لم يخلقوا ليتزاوجوا! لسنا عنصريين. لكن القبيلة ينبغي أن تبقى

قبيلة! ينبغي أن تبقى بناتنا في القبيلة، لو كان على الأقل جزائرياً أو تونسياً لكانت الغيبة أقل. عندنا في المغرب نسمّي السود عبيداً، ولا نختلط بهم. ينبغي أن تكون هذه البنت فاجرة. أرأيت ما أريد قوله؟ لسنا عنصريين، لكن كل واحد في مكانه! أنا، ليس عندي أي شيء ضد الأفارقة، بل إنني أجدهم ظرفاء، نعم، لدينا كلنا رائحة، طيب أنا، لدي حساسية تجاه رائحة أناس إفريقيا هؤلاء، ولا أستطيع شيئاً حيال ذلك. لست عنصرياً. وحتى هم ينبغي ألا يحتملوا رائحتنا. كان على إبراهيم أن يعاقبها بقسوة. ليس هناك من سبب لجعل ابنته تعصاه! لكن أنت تعرف جيداً أننا لم نعد نمتلك سلطة على أطفالنا. لا لقول نعم ولا لقول لا. فمن أجل صفعة صغيرة، ضربة بالكف على الكتف، يستدعون البوليس. فرنسا تمنعنا من تربية أبنائنا. فرنسا تعطيهم حقوقاً زائدة، وبعد ذلك تتركنا للخراء. . فرنسا، بلجيكا، هولندا، كل هذه البلدان التي لا تعرف ما هي السلطة، نعم يا أخي، أطفال هنا، ليسوا أطفال هناك. هنا لا يمكنك أن ترفع يدك، وتعاقب طفلك لأنه يدخل إلى الدار متأخراً، ولا ينجز فروضه، هنا، إنه ماخور! إبراهيم المسكين، منذ وقوع هذا الحدث لم يعد ينام، هجرته زوجته، صار ظل نفسه، صار ضحيةَ ابنته التي ذهبت لتلد أطفالاً مع أسود يقول إنه يشتغل في البنك، وما هو إلا حارس على مدخل البنك، هذه هي الحقيقة. إنه لا ينضح برائحة كريهة، فقط، ولكنه يكذب! نحن في الجزائر، ليس عندنا سود، أنتم المغاربة والتونسيين، عندكم الكثير منهم، وخصوصاً في الأقاليم

الجنوبية، لذا، فإذا كانت بنت إبراهيم تبخرت، في الريح، مع زنجي فلأن في بلديكما نساء أخريات يقمن بالشيء نفسه! تبحث عن العراك، كل الجزائريين عدوانيون، إنهم عنيفون ولا يحبون البلدان المغاربية الأخرى. هذا معروف جيداً. فإذا كان إبراهيم قد أعطى ابنته لإفريقي، فهذا دليل على أننا نحن لسنا عنصريين.

وهو يتذكر هذه الحادثة. كان محمد مضطراً للإقرار بأنه إن كان المغاربيون ضحايا دائمين للعنصرية في أوروبا، فالأفارقة كانوا محتقرين بدورهم من طرف المغاربيين، سواء في فرنسا أو في بلدانهم. العنصرية في كل مكان! فكر، كيف كان بإمكانه أن يتصرف هو لو تزوجت ابنته بإفريقي؟ كان يجد صعوبة في تخيل شيء كهذا. ثم رتب الأشياء بتفكيره في موحى توري العامل المالي، جاره في السلسلة. كان يعرف جيداً عائلته وكان معجباً بتربيته لأبنائه، وقال لنفسه: أفضل أن تتزوج ابنتي واحداً من أبناء موحى، عوض ابن نصراني لم يُختن. كان موحى مسلماً ملتزماً، متسامحاً، وخصوصاً حريصاً على إعطاء صورة جيدة عن الإسلام. كان يعطي الدروس لأبنائه، يعلمهم الأدب والتسامح والاحترام. وكان محظوظاً لأنهم كانوا يطيعونه. أما أبناء محمد فيتصرفون من تلقاء ذواتهم، ولا يستطيع فعل شيء.

3

فكَّر محمد في أبنائه الخمسة، هم، وهذا مؤكد، لن يتخلوا عنه، لن يهجروه، سيمنعونه من السقوط في براثن الحزن، سيعتنون به، سيحتفلون به، وسيهدونه هدايا، وسيبعثونه مجددا إلى مكة، لا، كان أبناؤه فخرَه، حاجزه الذي يقيه من العزلة. كانوا يحترمونه، ولو أنهم لا يكلمونه إلا نادراً. هو أيضاً لم يكن يكلمهم كثيراً. نادراً ما كان يحصل بينهم نقاش، وحين كان يطرأ مشكل، كانوا يتوجهون إلى أمهم، والتي تتحدّث معه. إنها مسألة عادات وتقاليد.

ما كان والدهم يراهم إلا قليلاً، يذهب إلى المعمل، وهم نيام، وعندما يعود بعد الظهر، يغلق عليه حجرته ليستريح. كان يطريهم حين يحصلون على نقط جيدة في المدرسة. كان ينظر إليهم بحنان ويبتسم لهم ابتسامة عريضة. يوم الأحد، كانوا يرون أصدقاءه في المسجد ثم في مقهى حسن، هناك حيث لا يقدم الكحول للزبائن. كان المكان حزيناً حزناً عميقاً. لم يكن هناك سوى الرجال، بعضهم يلعب الدومينو. التلفزة المغربية مشغلة بشكل دائم. يتكلمون عن ثمن الأرض في أگادير وفي

مراكش، يشاهدون جلسات البرلمان ويسخرون من أولئك الرجال الذي يلبسون جلابيب بيضاء، يبنون مشاريع للعودة، ويستحضرون المشكل الأكثر صعوبة، مشكل مستقبل الأطفال. هكذا، كل هذا لكي نجد أنفسنا بدون أطفالنا! لا، ليس الأمر هكذا كلية، لنقل بأن أطفالنا أكثر حداثة منا، اكتشفوا الحياة الحديثة وأحبوها. حين ستأخذهم للبلد، سيجدون كل شيء متخلفاً. ولن يحبوا ذلك، في البداية سيكونون سعداء، ثم سيملّون، إنهم سيّاح، سياح في بلدهم الأصلي، لكنهم ليسوا حتى سياحاً فضوليين. إنهم مزعجون، ولا يفهمون لماذا نحب البلد، يتشكون من الغبار والذباب، من القطط المتضورة جوعاً، ومن العجزة الذين لا يقومون بأي شيء. تبدو لهم المناظر غريبة، وينتظرون ظهور بطل حرب النجوم بسيف لايزر في اليدين. ينتظرون حدوث شيء. لكن لا شيء، قطعاً يحدث، وحدها الأحجار، شجيرات الصبار، وكلاب ضالة في حرارة خانقة. البلد هو هذا: ملل بثقل أطنان.

من الصعب الحديث لأطفالنا عن جذورنا، فهم لا يعرفون ماذا تمثل بالنسبة لنا! لكن هذا خطأ أخي، إنه ليس وطنهم، سأشرح لك، إنه وطنك، وأنت مرتبط به، أما هم فينظرون إليه بعيون أجنبي. الأغلبية لا تتحدث حتى لغة الوطن. إذن، ينبغي قول الحقيقة! الخطأ خطأنا، لم نعلّمهم العربية أو الأمازيغية. أنا، لن أرجع، هذا محسوم حين أحصل على لانتريت، سأستقر هنا، سأفتح مقهى صغيراً، وأنتظر الأحفاد. لقد بعت دار أگادير بثمن جيد، اشتراها متقاعدون فرنسيون، سينهون

حياتهم هناك تحت الشمس. إنه العالم بالمقلوب. أعتقد أنه لا خيار لنا. ليس لنا إلا التردد كما يقول المثل. انظروا إلى الفرنسيس، يلدون أطفالاً، ثم يتركونهم يتدبرون أمورهم وحدهم. كل واحد يعيش حياته. نعم، أصبت، إنهم يتدبرون أمورهم، ثم تشتد الحرارة في يوم ما، تشتد كثيراً كثيراً، إنها الگايلة، ثم يموتون، وحيدين، خمسة عشر ألف عجوز ماتوا بسبب الحرارة، أتفهم، وحيدين. لا أحد بجانبهم ليمدهم بكوب ماء. والأطفال، أين كانوا؟ كانوا في عطلة. كثيرون منهم كانوا في أگادير من أجل البحر والشمس، وآباؤهم وأمهاتهم يموتون وحيدين مثل حيوانات منسية على قارعة الطريق. أنا، إن فعل بي ابني شيئاً كهذا، سأ. . . . قتله. لا، لن أعترف به أبداً، لكن أولادنا مباركون، ولن يتركونا نموت مثل الكلاب: أصبت، في المغرب ليس هناك دار للعجزة، لكن لدينا أشياء جيدة رغم ذلك! أتعرف أن أبناء الضحايا بفعل الحرارة لم يأتوا كلهم لدفنهم، هناك من انتظروا أن تدفنهم فرنسا، ثم عرفوا بأنفسهم! لماذا؟ لا أفهم. من أجل هذا ببساطة، لكي لا يصرفوا النقود على الدفن، نعم يا صديقي، الفلس فلس في هذا البلد. ليسوا مثلنا، بالنسبة لنا، نحن، الوالدان، قال الله ذلك، ينبغي أن تحترمهما وإلا ستذهب إلى جهنم! قال الله أشياء كثيرة، بل إنه قال بأن أمهاتنا هن من سيُدخلننا الجنة! هل قال الله ذلك؟ لا أتذكر! لكنك جاهل وكافر!

تذكّر محمد حكاية من يسمّيه الكل مومو، الحاج مومو طويل ونحيف، يعتمر طول الوقت قبعة ملطخة بالدسم، فقدت قطيفتها سمكها، جندي سابق في الجيش الفرنسي غادر قريته أوريس لكي يخوض الحرب ضد الألمان لتحرير فرنسا. تشاجر مع إخوته وأخواته من أجل مسألة إرث. كان مشمئزاً منهم، ولا يريد أن يسمع كلاماً عن هذه العائلة التي تقتل من أجل النقود. خاض الحرب، قاتل مثل أسد، ثم في عام 1945، وعوض أن يعود إلى بيته، قرر أن يبقى في فرنسا. هنا التقى مارتين، وهي نورماندية موسرة وكريمة. لم يكن معاشه يكفيه، دخل إلى معمل رونو واشتغل بالحماسة نفسها التي أبداها في الحرب. كان رجلاً شجاعاً، لكن كان به عيب، كان يشرب كثيرا. وقد قام بتطهير جسده من الإدمان في مكة. طوال ثلاثة أشهر لم يشرب قطرة كحول واحدة، لكن وبعد عودته، هجرته مارتين بعد إرهاق عصبي لم يفهم سببه، فسقط مومو في جحيم الكحول. بدون أطفال، مهجوراً، مات وحيداً في شقته الصغيرة. اكتشفت جثته بعد وفاته بثلاثة أيام. كانت المرة الأولى التي يموت فيها مهاجر في عزلة تامة، كما يحدث أحياناً في المجتمع الفرنسي. تأثرت العشيرة العربية بحالة مومو. الموت في عزلة، لم يكن مستساغاً. كان الناس يفكرون أن هذا لن يحدث أبداً لمسلمين بما أنهم ينتمون كلهم إلى الجماعة نفسها، إلى الدار نفسها، دار الإسلام، تلك التي تجمع الأغنياء والفقراء، الكبار والصغار.

كان خيال إبراهيم وخيال مومو يلازمان أفكار محمد، كان

يقول: حياتي القادمة بالضرورة أقصر من التي خلفتها ورائي. لم يكن الموت يرعبه. ولكن ما كان يسبق الموت، ما يسبب الموت، كان يشغله، ولو أنه كان يعوِّل على الإيمان لتخفيف انشغاله. وتبقى العزلة التي لا تخيفه، لأنه كان متيقناً بشكل تام بأن زوجته وأبناءه لن يتخلوا عنه أبداً. لكن شبحها، شَبَح العزلة، بقي يطوف من حوله.

إبان فترة الشك هاته، سيقوم بهروب. كصبي غاضب قرر ذات يوم، وهو يخرج من المعمل، أن لا يتبع الطريق المعتاد إلى البيت. ركب قطاراً آخر، ووجد نفسه في الجانب الآخر من المنطقة. كانت نهاية الربيع، الجوّ لطيف، مناظر جميلة، المارون يبتسمون وبعضهم يحيّونه. كان يحس بنفسه خفيفاً استعاد طاقة الطفولة. قليل من المغاربيين يسكنون في ذلك الجانب. هناك، على الخصوص، أناس من بلدان أوروبا الشرقية. دخل إلى بار وطلب بيرة بدون كحول. قال له النادل وظهره يقابله: ليس عندنا! اعتقد محمد أنه ارتكب خطأ، أنه أهان أحداً. لذا طلب كوكا، قال له النادل المشغول دائماً بصقل الكؤوس، ومن دون أن ينظر إليه: بقطع ثلج، أو شريحة حامض أو لا شيء؟ لا شيء. وصلت الكوكا المعلبة فوق طاولة الشرب، وقد زلقها النادل حتى محمد. كان يود أن يشربها بموص، لكنه لم يتجرأ على طلبها منه، وهو يبذل مجهوداً، قال بصوت ناعم: عجة بيض، أريد عجة بيض. وقف النادل أمامه ووبخه: عجة بيض هكذا! لكم الاختيار. هناك عجة بيض بجانبون، عجة بيض بجانبون باريس وبفطريات

باريس أيضاً، عجة بيض بالجبن وجانبون إسباني، عجة بيض بروسكويتو إيطالية. . بل، أريد فقط عجة بيض. بلا شيء آخر. . أنا لا آكل الخنزير. . آه. أنت مسلم! لكن مع هذا دورق شراب أبيض سيكون الأمر جيداً جداً! لا، أنا لا أشرب الكحول أيضاً. إذن ستكون عجة بيض صرفة! بدون حتى الأعشاب الرهيفة. نعم صرفة، بيض فقط، وقليل من الزبدة. نادرا ما آكل عجة بيض جيدة مثل هذه. لم يكن في العجّة أي شيء مميز، لكن ولأنه خرج من المعتاد، فجأة بدا له كل شيء رائعاً. قال لنفسه إنه ينبغي أن يعاود هذا النوع من الهرب.

رغم ذلك، وهو يغادر البار، أحسّ بنفسه على غير ما يرام. كان يجد صعوبة في هضم البيض والزبدة التي عام فيها. فكر في زوجته التي ستبدأ في القلق على غيابه. كان عليه أن يكلمها، لكنه لم يعرف ما يقول لها. كان غير قادر على الكذب، ولا على اختراع سيناريوهات ذات مصداقية. كان يحس بالخجل من أن يعترف لها بأنه اختفى لأنه كان حزيناً، وأراد أن يقوم بحركة على غير العادة.

استقل القطار في الاتجاه المعاكس، ووجد بعد مضيّ أربعين دقيقة حيّه. كان الليل قد حلّ، والناس أمام التلفزيون. بضعة شبان يتسكعون هنا وهناك، صاح به أحدهم، هيه أيها الخال، تريد الحقيقية، الجيدة، القادمة من البلد، إن لم تكن تتناولها أعطها، على الأقل، لأبنائك! إني أمزح أيها الوغد العجوز.

«وغد عجوز»، سمع مراراً هذه السبّة من حوله، لكنها كانت المرة الأولى التي وجّهت له. كان يقول لنفسه، وهو يسير مطأطئ الرأس نحو عمارته: هل لي وجه وغد عجوز؟ ماذا يكون وغد عجوز؟ ينبغي أن يكون شخصاً بئيساً، رجلاً لا يتعارك، يتحمل الحياة، وفي اليوم الذي قرر فيه أن لا يكرر الحركات نفسها، تلقى عنفاً من نوع آخر. لم يجد مكانته في أي مكان آخر خارج المصنع، وبالضبط خارج مرفقه «قسم الصباغة». هناك ما كان يحس بنفسه زائداً عن الحاجة. في البيت يكون الروتين أكثر مشقة، لأنه يكون من حين إلى آخر مرفوقاً بمآسٍ صغيرة مع الأطفال. كان بودّه، ربما، ألا يغادر المعمل أبداً. أن يبقى هناك حيث يجد نفسه مفيداً. هناك حيث تتوقف السلسلة عليه، لتنتقل إلى المرحلة الموالية، لقد رصد ركناً صغيراً وراء مكتب رئيس العمال. وكان يودّ لو جعل من هذا الركن مكانه، داره، سريره، لكن كان سيشتاق إلى أطفاله، ولو أنه كان يتكوَّن عنده، وبشكل مطرّد، انطباع خالص بأنهم لن يفتقدوه. أو أنهم لم يكونوا يبدون عواطفهم. لقد صاروا أوروبيين صغاراً، حيث يصارع كل واحد من أجل نفسه، وحيث تتراجع مكانة الوالدين إلى المستوى الثاني.

الشخص الذي قتل زوجته وأبناءه الثلاثة، ثم أخفق في قتل نفسه، ينبغي أن يكون «وغداً عجوزاً». كان التلفزيون قد تحدث عنه طويلاً، أن تقتل عائلتك ثم تحاول أن تقتل نفسك لأنك راكمت ديوناً، أو تملّكك الإحساس بأنك أخفقت في حياتك. لم يكن محمد يفهم هذا. هذا محرَّم في الإسلام.

الانتحار يعاقب عليه بالتكرار، إلى ما لا نهاية، من طرف الله الذي يجعله يعيد فعلته بشكل أبدي. أتتخيل شخصاً يشنق نفسه. إنه سيقضي كل الأبدية وهو يشنقها، ربما ليس في الشجرة نفسها لكن في دور، في متاجر، وسط صالون الأغنياء... توقف محمد ثم قال لنفسه: لكن هل ستكون هناك دور ومتاجر في الآخرة؟ لا أعرف، ما من أحد عاد لكي يحكي لنا ما وقع. أن تقتل؟ أبداً. لم تعبر رأسي نهائياً هذه الفكرة المريعة.. في العيد الكبير أرفض نحر الخروف، أكلف بذلك أخي الكبير أو جارنا. رؤية الدم تزعجني. لم أرفع يدي أبداً على أطفالي. كنت أحاول دائماً أن أهدّئ نفسي، وقد دلّلتهم كثيراً، وخصوصاً البنت الأخيرة، لقد أفرطت في تدليلها حتى صارت تلميذة سيئة. لقد عرفت هذا يومَ قرَّرتْ أن تتوقف عن الذهاب إلى الثانوية. في هذا اليوم بكيت وحدي بعد الصلاة. بالنسبة إلي، كان الأمر أكبر من فشل، إهانة، قالت لي: لا أحب المدرسة، سأتوقف، ثم لديّ رغبة في العمل. فهمت أن كل محاولة لإرجاعها إلى الصراط المستقيم ستكون بلا فائدة. كان بإمكاني أن أقول لها: لو عرفت كم عانيت لأنني لم أذهب إلى المدرسة، وكم أُحرَمُ من أشياء بسبب الأمية. لو عرفت ما أنا مستعدّ أن أعطيه اليوم لكي أحصل على معارف، علم، دبلومات، تثقيف، أحس بنفسي كأنني حمار، حيوان شجاع، يمر في كل يوم من الطريق نفسه، يقوم بالحركات نفسها، وغير قادر على الابتعاد عن الروتين مخافة الضياع، مخافة الغرق في بحر هادئ. لو تعرفين كم أحسّ

بنفسي وحيداً لأنني مرتهن للآخرين حين أذهب إلى إدارة. لكن أتصور أنك لست بحاجة إلى كل هذا، أنتِ ولدتِ في عصر آخر، وجدتِ الحياة أكثر سهولة بعض الشيء، أكثر بداهة، لا تحبين، لا تحبون أن نذكركم بما مررنا به في الماضي. أتذكرين اليوم الذي مسحت فيه السكين بلباب الخبز. كان رد فعلي عنيفاً، الخبز ليس ممسحة، الخبز، لقد علموني أن أرفعه إلى فمي لأقبّله قبل أن آكله أو أخبّئه. الخبز مقدس، وأنت استعملته كشيء تافه. لم تفهمي ردّ فعلي، وخصوصاً أنك لم تتعودي رؤيتي أقوم بردود أفعال. أتتذكرين يوم رفضتِ بِدَلَعٍ أكل الموز. دفعتِ الموزة بأطراف أصابعك وأنت تقولين لا أحب الموز. ارتكبت خطأ وأنا أقول لك إنني حين كنت في سنك كان أكل الموز والتفاح حلماً، وإنني انتظرت الوصول إلى فرنسا لأتعرف على طعمها. لكن هذا لا يهمك، أنت، ولا يهم إخوتك وأخواتك. كان الأمر شبيهاً بما وقع يوم قال لي أخوك مراد، لأنني كنت أعارض من يخالطهم: لا أحب أن أشبهك. آه، لا، ليس مثلك، إنك هنا ولا ترى. إذن اسمح لي، أنت لا تشجعني على أن أصير مثلك. . نظرت إلى نفسي مطولاً في المرآة، ولم أعرف لماذا لا يريد هذا الصبي أن يشبهني. ما هو هذا الشيء الذي يجعلني قبيحاً جداً، منفراً جداً؟ أنا طاهر، لم ألحق الأذى بأحد، أقوم بعملي على أحسن ما يمكنني ذلك. أنا مخلص لله وأؤدي فروضي، كل هذا لا يُرى في وجهي! يجب ربما أن أصير عنيفاً. أن أبدد نقود العائلة في البارات مع المومسات،

أن أتسكع في الأزقة مثل عتيق، الرجل الذي فقد كل شيء، وخصوصاً العقل...

باستثناء الصغيرة الأخيرة رُقَيّة. كل واحد من الأطفال كانت له أسبابه. لكن بيت محمد فرغ شيئاً فشيئاً. كان يجد صعوبة في قبول هذا. لم ينتبه لكونهم يكبرون، يكوِّنون حياتهم ثم يرحلون. كان يؤاخذ نفسه لأنه لم ينتبه إلى ذلك. كان يطمئن نفسه لأنه لم يكن الوحيد الذي يعيش هذه الوضعية. ثم يقول لنفسه إن عمل مسعود انتهى بأن نجح في إفراغ مسكنه، واحد من أولئك الأمازيغيين العجزة الذين يتحولون إلى السحر، الشوافة، وخدمات أخرى تؤمن لهم إضافة جيدة للتقاعد. يترك المشعوذون لحاهم تنسدل، ويلبسون ثياباً تقليدية، ويستقرون في شقة صغيرة، يحيطون أنفسهم بكتب عن الإسلام، ويحرقون قليلاً من البخور. يعلقون على الجدران لوحات خطيّة كتب فيها اسم الله ورسوله محمد وصور مكة والمدينة، وفي الأرض صلّايات عليها صُوَر الكعبة، يقولون إنهم لا يقومون بالأعمال السيّئة، يقومون فقط بمنع الشر من الوصول إليكم. كان محمد، وهو مسلم ملتزم، يشمئز من هؤلاء السحرة. كانت زوجته وابنته الكبرى تذهبان إلى شخصٍ يسمى علام، كان يبتزّ منهما ما لا يستهان به من الفلوس مقابل منحهم طلسماً تحملانه معهما، أو تدسّانه في أشيائهما. ذات يوم استدعيت ابنته من طرف رجال الأمن في أورلي، وعُثِرَ في حقيبتها على شيء مجهول، كتلة صغيرة مغطاة بلاصق رمادي وورق ألمنيوم.

اعتقدوا أن الأمر يتعلق بمخدر أو بمادة من شأنها أن تستعمل في صنع قنبلة. ذهب خيالهم بعيداً. وبعد أن فتحت ذلك الشيء، اكتشفوا قطعة ثوب بُنّي خَرْبَشَ فيها علام حروفاً عربية، كان هذا هو طلسم حمايتها. لم يكن بالقوة التي تلغي انتباه رجال الأمن. طوال الرحلة، فكرت في تفاهة ذلك الوضع، شابة عصرية مولودة في إيفلين تحمل في حقيبتها، من بين ما تحمله، هاتفاً محمولاً، قارورة عطر، أحمر الشفاه، مفكّرة إلكترونية، وقطعة ثوب قذرة لحمايتها الجسدية والنفسية! طوال الرحلة، علقت الطائرة في عاصفة رعديّة، مما جعلها ترتج بعنف. كل ركاب الطائرة كانوا خائفين. وجميلة كانت على يقين بأن جزءاً من اضطراب الطائرة كان بسبب الطلسم الذي فتح ولم يغلق بكيفية محكمة. تقول لنفسها: ولدت حقاً في فرنسا، لكن جيناتي جاءت من البلد.

لم يكن محمد يستطيع شيئاً. كل سكان القرية يعتقدون بهذا النوع من التدخلات السحرية. من حين إلى حين تحرق زوجته أعشاباً ذات رائحة خانقة، وتطلب منه أن يطوف حولها لمدة سبع دقائق. ويقوم بذلك، لأنه لا يحب الخصومات. كان يطيع زوجته، وليس له خيار، فهو لكي يعيش في سلام لم يكن يعارضها. . كان يقف ويطوف حول المجمر الصغير، لكي يكون للبخور، الذي ينضح بروائح مثيرة للغثيان، تأثير على مجرى حياته. كانت زوجته أميّة، لكنها ذكية، مقدامة ومقتصدة، لا تنقاد أبداً للغضب، تقبل كل شيء من أطفالها. تخدم من

دون أن تشتكي، وكان ذلك طبيعياً، فالاحتجاج لن يؤدي إلى أي شيء. لقد رأت ما حل بلبنى، شابة من البلد تزوجت وهي صغيرة جداً، وجاءت إلى فرنسا مع زوجها، أرادت أن تثور، ورفضت أن تعد الأكل وأن تنظف البيت. لكن زوجها صفعها صفعتين قويتين جداً، جعلتاها تفقد السمع ساعة كاملة، اشتكت إلى الشرطة، وأنكر الزوج كل شيء، ثم بعثها إلى البلد حيث صارت منبوذة. وكان من قبل قد طلب من أبيها أن يأخذ منها جواز سفرها، وأن يلقي به في النار.

كان محمد يفضل الكتاب، يحب الأشياء البسيطة البديهية، كان من هواة زيت الزيتون والعسل الخالص الذي يجلبه له عمه العجوز، كان يقول له، بإمكانك أن تأكل بقدر ما تشاء، العسل مفيد للصحة. كان مصاباً بالسكري لكن عمه أقنعه بأن العسل الخالص يوائم تماماً السكري. ما ينبغي تجنبه هو السكر الأبيض، سكّر المدن، لا يمكن للعسل إلا أن يفيدك. يتكلم الله عن العسل في القرآن، وسيكون هناك عسل عجيب في الجنة، أنهار من العسل، لا يمكن أن يكون العسل مضراً بالصحة. لذا، كان يأكل العسل في كل صباح قبل الذهاب إلى المصنع. بدأت نسبة السكر في دمه تتزايد ويجفّ حلقه، لكنه لم يكن يتخلى عن العسل. خبز ساخن مغموس في زيت الزيتون، ثم في زلافة من العسل، كان هذا هو طعامه اللذيذ، متعته. كان يتناول بعض الأدوية، وأعطته زوجته طلسماً ملفوفاً وقد خيط في قطعة ثوب داكن، من دون شك نفس قطعة ابنته.

ستحميك من المرض، وعين الحسود، ومن حرارة المصنع نفسها. كان يتظاهر بأنه يؤمن بذلك، ولم يكن يريد أن يتخلى عن استمتاعه الصباحي. أما بالنسبة للكتاب الملفوف في قطعة من كفن الوالد، فكان يضعه في كيس بلاستيكي يحمل علامة سوق ممتاز، وفي كل مرة يفتحه، ويأخذه إلى شفتيه، لم يكن يبقى وحيداً. لم يكن في حاجة إلى خدمات الحاج، ساحر باب لشبيل، لا، كان يرفض مقابلته، وإن كان يحمل معه كتاباته، فلأنه لا يريد أن يسبب ألماً لزوجته. كان بإمكانه أن يقوم بأي شيء لكي لا يخاصم زوجته أو زملاءه. كان يعتقد بأن الدخول في صراعات، وخصوصاً حين يتعلق الأمر بماديات، أمر لا يستحق العناء. كان يبقى هادئاً، لا يستثير أحداً، ولا يتدخل في شيء. وحين يخاض إضراب، كان يقوم بما يقوم به الجميع، لا يتصدر، يتبع تعاليم مارسيل، وينتظر هدوء العاصفة. كان يقول: هذه ليست مشكلتي، فالفرنسيون اعتادوا القيام بإضرابات، لذا أنا أتبعهم، وأحياناً لا أفهم حتى لماذا نتوقف عن العمل. مارسيل يشرح لي، أسمعه وأنا أفكر في شيء آخر. أفكر في طفولتي في البلد، وأقول لنفسي مبتسماً: لو بقيت هناك، لما كلّف فرنسي نفسه، أبداً، عناء أن يشرح لي أسباب الإضراب، الأسباب السياسية وغيرها، ولما طلب أوروبي، أبداً، رأيي، هذا صحيح. قال مارسيل: يمكنك أن تصوّت ضد الإضراب، هذا حقك. أنت حر، نحن هنا في ديمقراطية.. سمع هذه الكلمة للمرة الأولى في مقهى بمراكش، في يوم كان ينتظر فيه حافلة تقلّه إلى طنجة، سمع أحدهم يصيح في

الراديو: ديمقراطية.. ديمقراطية الحقيقية، وفي الحافلة جلس رجل بجانبه، وبدأ يشرح له ماذا تعني: أتفهم، نحن، الذين نعيش في البادية، حين نأتي إلى المدينة نحسّ بأنفسنا غرباء، لكن مع الديمقراطية سيتم التعامل معنا بشكل أفضل، هذا ما قاله ذلك الشخص في الراديو. قال إننا سنكون سواسية، وكل أطفالنا سيذهبون إلى مدرسة الدولة، وسيكون ذلك مجانياً، المستشفى والأدوية ستكون مجانية هي الأخرى. من أجل هذا ينبغي الذهاب للتصويت. وإذا كنت لا تعرف القراءة فستضع بَصْمتك في كناش وتصوِّت، هذه هي الديمقراطية، وبعد ذلك سيكون عندنا الماء والكهرباء في القرية. ستكون عندنا الطرق، وحتى الإنارة لتبديد ظلام الأزقة. أترى، نريد أن نكون مثل الأوروبيين. سيكون الأمر صعباً علينا، ويلزمنا وقت، لكننا سنصل، طيب، أريد الآن أن أدخن سيجارة، هل لديك نار؟

4

كان محمد يعهد بكل أوراقه الإدارية لابنته الصغرى، التي كانت تمضي ساعات وهي تملأ وثائق من أجل التعويضات العائلية، الضمان الاجتماعي، البنك، مصلحة الضرائب. يوقِّع برسم شجرة، ويقول إنها شجرة زيتون، الشجرة نفسها الموجودة في القرية. كان يخط خطين عموديين تعلوهما دائرة مليئة بالخطوط، توقيع أصيل يخالف الصليب الاعتيادي الذي يخربشه رفاقه. كان بوده أن يكتب اسمه بالعربية، فقد تعلم الأبجدية حين كان في الكتّاب. لا أعرف الكتابة، لكنني أحب أن أرسم، الأطفال يجهلون ذلك، يسخرون مني، لذا أرسم في الخفاء، لا حاجة إلى مدرسة للقيام بهذا، زد على ذلك، أن لديّ دفتراً مليئاً بالرسومات، سأتركه لأولادي أو بالأحرى لأحفادي. أرسم أشجاراً ودوراً، هذا كل شيء، أشجار بثمار من كل الألوان، كبيرة، متوسطة، قصيرة وممتلئة، أشجار يابسة، أخرى خضراء، أرسم أخشاباً وأحياناً غابة، أسير في الغابة، أتوه، أتوقف وأجلس وظهري ملتصق بجذع شجرة ضخمة، لا أعرف اسم هذه الشجرة، لكنها تعطي الظل

والرطوبة، تعطيني هواء منعشاً يريحني ويجعلني في حالة جيدة. هذه الشجرة لا توجد إلا في الغابة التي أرسمها. أعرف أنها لا توجد في مكان آخر. أرسم أشجاراً وغابات لأننا لا نتوفر على مثلها في البلد، ففي البلد هناك أحجار وغبار، هناك جفاف في كل شيء، هناك أحجار صغيرة أو كبيرة وبينها عقارب، إنها تلدغ الأطفال إبان نومهم فيموتون مختنقين. ماتت ابنة أخي ذات الأربع سنوات بسبب عقرب لدغها في الليل.. في الصباح كانت منتفخة، وعيناها مسدودتان، لم تعد تتنفس. لو كان عندنا ماء، جداول، لما لدغت العقارب ابنة أخي الصغيرة..

أرسم ملاعب، مزحلقات، متاهات في حديقة إنجليزية مثل التي رأيتها ذات يوم في التلفزيون، كل الفيلم كان يدور بين صفوف أشجار مقلمة بشكل منظّم، ولا غصن نافل. لم أعد أتذكر أبداً ماذا كانت تقول الشخصيات التي ترتدي ثياباً على الطريقة القديمة.. كان الأمر جميلاً، متناسقاً، غريباً. أرسم المصنع منظوراً إليه عن بعد. الكل مزيّن بألوان فسفورية، يمكن أن نقول حديقة ألعاب مع أضواء تومض كل الوقت. أرسم أيضا دوراً بأسطح ليس فيها أجهزة لاقطة ولا هوائيات تلفزيون، أسطح بزرابي وأثواب ذات ألوان براقة، ليس لي مظهر من يحب الألوان، لأن أطفالي كانوا يؤاخذونني على أنني ألبس دائماً الرمادي، لكن في العمق أنا أحب ألوان الربيع، الألوان الطبيعية، لست في حاجة إلى حملها فوق ظهري. توجد الألوان في رأسي، إنها تعزف الموسيقى حين يتعب رأسي، إنها لا تخرج مني، ولهذا يقال إنني حزين. أن تكون حزيناً يعني أن

يلاحقك سوء الطالع، فلا شيء يحدث كما كنت تتمناه. لذا، وبما أنني لا أملك من أمري شيئاً، فإنني لا أفعل شيئاً، وأرى العالم يحتد كما لو أنه أصيب بسعار أو بحمى يستحيل شفاؤها. أنا حزين منذ أن وصلت إلى فرنسا، ولا علاقة لهذا البلد بحزني. لكنه لم ينجح في أن يجعلني أبتسم، في أن يعطيني أسباباً لأكون مرحاً، سعيداً، الأمر هكذا، لا أملك من أمري شيئاً. ولست وحدي في هذا. أنظر إلى الرجال وهم يخرجون من المصنع، كلهم حزانى، وخصوصاً أهلنا المغاربيين، يتقدمون وأجسامهم منحنية قليلاً كما لو أنهم يحملون ثقلاً. ربما أتوهّم ذلك، ربّما هم ليسوا تعساء، فهم يقضون وقتهم في الضحك. أنا لا أتمكن من ذلك. نعم، أحب الألوان وأحتفظ بهذا لنفسي، هذا ما لم أتمكن من جعل أطفالي يفهمونه. لكنني لا أحاول مجرد محاولة، لا رغبة لي في الكلام، لأبرر نفسي. لهذا السبب أتكلّم معهم قليلاً. كنت أفكر أنني حين أصل إلى فرنسا، سيكون من السهل تبادل الكلام، ولو حول المائدة. أحسّ بهم في مكان آخر، أحسّ أنهم قد ذهبوا منذ مدة، ويتظاهرون بالحضور. لا شيء يحدث، يتحدثون في ما بينهم عن أصدقائهم، عن مشاريعهم، ولا أفهم شيئاً، ما عدا بعض صيغ الكياسة، لا شيء يحدث بيننا، لكنني لست الوحيد على هذه الحال. هل كان أبي يكلمني؟ نعم، كان يقول لي أشياء قليلة، لكنني كنت أعرف ما يتوجب فعله. لست في حاجة إلى خطابات مطولة. لقد علمني أسس ديننا وقال لي: الإسلام بسيط يا بني، أنت وحدك المسؤول أمام الله، إن عملت خيراً

وجدته في العالم الآخر، وإن فعلت شراً وجدته أيضاً، لا مشكل في هذا، كل شيء يتعلق بالكيفية التي يتعامل الناس بها، وخصوصاً الضعفاء، المساكين. لذا فالإسلام هو أن تصلّي، تتوجه إلى الخالق، ولا تقترف الشرور من حولك، لا تكذب، لا تسرق، لا تخن زوجتك ولا وطنك، لا تقتل. لكن هل أنا في حاجة إلى تذكيرك بذلك؟ لم تكن أمي تقول شيئاً، فهي تتكلم قليلاً. وفي اليوم الذي قلت لها فيه: ينبغي أن أتزوج، أجابتني: فكرت في ذلك ووجدت المرأة التي نحن نحتاج إليها. ألحت على «نحن». تزوجت بابنة عمي، والتي هي في الواقع ابنة بنت عمي ومر كل شيء بنحو جيد، لا مشكل، لا ترفع صوتها أبداً بكلمة أكثر من أخرى. كل شيء هادئ، لا تعارضني أبداً. أنا أيضاً لا أعارضها، أمي تعرف ما أحتاج إليه، سأكون مديناً لها طوال حياتي. ينبغي دائماً الثقة بالوالدين، إنهما يعرفان أكثر من أولادهما ما يلائمهم. هذا ليس صحيحاً دائماً. أعرف ذلك: الوقت تغير، لكنني لن أتغير. لم أحقق ذلك مع أطفالي. لا أفهم، أنا ضائع ولا أعرف كيف أتخلص من ذلك. أترك الأمور تجري مجراها ولا أقول شيئاً. لم يكن تصرفي على ذلك المنوال حلاً جيداً، فالأطفال في حاجة إلى سماع أقوال والديهم، هنا. لدي انطباع بأنني أخطأت في كل شيء. لكنها حكاية بيني وبين فرنسيس. فرنسيس، لم أحلم بها أبداً، هذا صحيح، أسمع كلاماً عن أناس يذهبون للعمل في لافرنس، ثم هذا كل شيء. وحين كانوا يعودون، لم يكونوا يحكون عن فرنسيس، يحكون فقط عن البرد، اللغة الصعبة،

الناس الذي لا يبتسمون في وجهك. . لكنهم يجلبون معهم النقود وأشياء لا حاجة إليها. أتذكر عمي الذي رجع ومعه فرن كهربائي ومكواة، لقد نسي أننا لا نتوفر على تيار كهربائي، وأننا نستعمل الشموع ومصابيح البترول للإنارة، وقناني غاز البوتان للتلفزة. استعمل الفرن كمخزن للمأكولات، هذا مضحك، كانت خالتي تحرص عليه بشدة، تلفه بمنديل مطرز، ولا أحد كان له الحق في لمسه. استعملت المكواة في ترقيق العجين للنجاح في إعداد فطائر رهيفة. جلب ابن أخ بياضة، مشدات صدر من حرير، لكن أمه لم تضعها أبداً، فعلقتهم في مسمار، ووعدت بهم خطيبة المستقبل. لكن لا واحدة من البنات الشابات أرادت الاقتران به. كان يتأتئ، وكان أيضاً ضحية للأطفال. وحين يحتد تجعله تأتأته أكثر انفعالاً، فيضحك الآخرون بشدة متزايدة. كان يقول أن لا أحد في فرنسا يهزأ منه، وأنه في العطلة القادمة سيذهب لقضاء العطلة عند فلاحين بروتونيين. لم يعد أبداً إلى القرية وفقد أثره.

كان حلمي، حين كنت صغيراً، معرفة القرآن بعمق، معرفته وفهمه، وربما حتى شرحه للآخرين. أستظهر بشكل آلي سوراً كاملة، لكنني لا أفقه كل معانيها. لم يكن أحد في القرية قادراً على تأويل هذا الطفح من السور. كان الاستظهار يجعلني في حالة استثارة إلى درجة أنني أصير كابن أخي، أتأتئ قليلاً. تكون هناك كلمات في طرف لساني، بعضها يختفي عميقاً في حلقي، وتترك أخريات آثاراً لأنها كانت طويلة جداً ويصعُبُ

حفظها. كان لدي أحلام أخرى. لكنني لم أجرؤ على قولها. لا أريد أن أكون غنياً، أريد فقط النقود لتقديم هدايا. حين أرى الأفق، حين أرى هذه الأحجار الجافة، الرمادية، الحمراء، لا تتجرأ أحلامي على الخروج، كنت أخاف أن تختلط بهذه الأرض القاسية، التي من دون أمل. كان كل شيء مبالغاً فيه في هذا المكان: البرد كما الحرارة، الضوء كما الرعد، النجوم التي تجري بأعداد كثيرة في بعض الليالي، الغمام الذي يلف السماء من دون أن يعطي قطرة واحدة. لذا فالأحلام كانت تبقى غافية في كهف، ولم أكن أجرؤ على دفع الباب ولا رفع الغطاء. كنت أخاف مما يمكنني أن أجده. إن الأحلام مثل الذكريات لا أعرف إلى أين تذهب ولا أين تختفي. ذات يوم سألني أحد أولادي: أين يختبئ النور في الليل؟ قلت لنفسي: إنه صنف الأسئلة التي لم أجرؤ أبداً على طرحه على أبي، هو من أعطاني الجواب: الأرض تدور، الضوء لا يتحرك، نحن من يتحرك مع الأرض. كان ذلك أيام كان أولادي يطرحون عليّ الأسئلة، حتى لو لم أجب عنها، اليوم صاروا بالكاد ينظرون إليّ.

لا إبراهيم رحمه الله، ولا الحسن، ولا حمدوش، ولا لعرج، ولا حتى أحمد الذي جعل الآخرين ينادونه طوني.. ولا آخرين، لا أحد منا طلب الجنسية، تركنا هذا للشبان، نحن، نحن لن نكون، أبداً، فرنسيين مئة في المئة. ينبغي أن يكون المرء مستقيماً، هذا ليس ديننا، نحن مغاربة، جزائريون، تونسيون، ليبيون، لن ندّعي أننا فرنسيون من أجل الأوراق

فقط. إن أمر أولئك الذين يخطئون في كلامهم، ويدّعون أنهم فرنسيون، وهم يقلدون نبرة مقدم التلفزيون ليس جيداً. كل أطفالي فرنسيون، في الأوراق. في البداية كنت أجد صعوبة في قبول ذلك، كان يتوجب توقيع وثائق، كنت أتردد، مع الأصدقاء، كنا نتكلم في ذلك، ولم نكن متفقين في ما بيننا، بل إن ربيع ضرب ابنتيه بالحزام لأنهما ملأتا ملف الجنسية، فأقامتا فضيحة كبيرة. أنذرتا الشرطة والإعلام. كاد ربيع المسكين يذهب إلى السجن لأنه أضرّ بحرية ابنتيه الراشدتين. أن يصير الواحد فرنسوياً بالنسبة له، يعني أن يقبل، أمام العموم، بأن أطفاله لم يعودوا ملكه. وأن فرنسا تأخذهم تحت جناحها، ولا كلمة له في الأمر. جاءت صحافية غاضبة في المدينة ومعها كاميرا. أرادت أن تسمع الأب، وقد فوجئ المسكين، وهو في مقهى، فغمغم كلاماً. هو لم يكن يعرف ما يقول، ولا كيف يتخلص من هذا الفخ. كانت الصحافية تقصفه بالأسئلة، ولا تترك له مهلة للتفكير، كانت تتهمه بكل الأوجاع التي يعاني منها مجتمع المهاجرين، كان تعيساً جداً، وبعد هذا الامتحان رحل إلى الجزائر وأخذ معه أصغر أبنائه، سجّله في مدرسة بالجزائر وقال لنفسه: على الأقل أفلت منهم هذا، لكن الأشياء لم تجرِ كما كان يتصور: لقد هرب الصبي وعاد إلى إيفلين، حيث التحق بمجموعة من الشبان الملتحين، الذين وهم ينتمون إلى فرنسا، يريدون الدفاع عن ألوان الإسلام في أرض مسيحية. إنهم لا يعرفون شيئاً عن القرآن، لكنهم يتبعون طقوساً لا يفهمون منها شيئاً كثيراً. كان الطفل مشوَّشاً. لم يجد مكانه بين

هذه المجموعة من الملتحين الذين يغسلون له عقله، ولا في العائلة حيث كانت الخصومات عنيفة. ذات يوم صاح: أنا لا أؤمن بالله! كان الأمر أقوى منه، بدأ «الإخوة» في الابتهال إلى الله ليبعد عنه الشيطان.. كان يسخر منهم. صار كلامه مستفزاً: باسم ربكم تنحر فتيات صغيرات في الجزائر! هرب بعد ذلك، ووجد ملاذاً وسط مجموعة من المهربين يقودهم ابن عمه المسمى «الأعور»، وبعد وفاة ابن عمّه في حادثة سيارة، أخذ هو زمام الأمور وصار غنياً. كان يبدل دائماً اسمه ومسكنه، حتى اليوم الذي فر فيه واستقر في أستراليا التي يقال إنه فتح فيها مطعماً سمّاه ملك الكسكس. ولم تُعْرَف أخباره أبداً بعد ذلك. الوالد كان حزيناً ومحبطاً، حتى أنه امتنع عن الكلام، سجن نفسه في صمت طويل منتظراً خلاص الموت.

5

أسماء أبنائي مراد، رشيد، جميلة، عثمان، رقية ونبيل العجيب، والذي ليس ابني وإنما ابن أختي التي ائتمنتني عليه، على أمل أن يتمكن من دخول مؤسسة للأطفال المتخلفين عقلياً. إنه المفضّل لديّ، ولد بإعاقة، وأعتقد أنه حوَّل هذه الإعاقة إلى شيء رائع. قيل لي إنه مصاب بالمغلية، لا أعرف شيئاً عنها، لكنني أعرف أنه طفل مدهش. إنه يكوم نفسه بين يدي، ويلصق نفسه بقوة بي، ويقول لي «تنحبك». أولادي لا يقولون لي أبداً «تنحبك»، ولا أنا أقولها لهم، زيادة على ذلك، إنها أشياء لا تقال في العائلة. ذات مرة ردت إليّ السكرتيرة في المصنع وثيقة لم تعبأ بشكل جيد، قلت لها: رغم ذلك فهو الذي عبأها، أنا أثق به، قالت لي: من هو؟ ابنتي الصغرى. بدت المرأة مصدومة، ولكن كيف يمكن أن تفسر لها أن الأمر عندنا هكذا، إننا لا نتكلم عن بناتنا ولا عن أمهاتهم، إنها مسألة احترام، لكنها لم تفهم، إنني لم أطرِ أبدا بناتي، إننا لا نقول: «ابنتي جميلة»، لا، هذا لا يقال عندنا.

لأبنائي وجوه عربية جدا، الرأس والحركات، يقولون إنهم مندمجون، لم أفكر أبداً في ماذا يعنيه ذلك. ذات يوم قدم لي رشيد بطاقة وقال لي: بهذه سأصوِّت، أنا أيضاً فرنسي وأوروبي، قلت له: سر ببطء، فقبل أن تحصل على الأوراق انتظرت أكثر من سنة ونصف. لن تبدأ السيرك نفسه لكي تقول لنفسك إنك أوروبي. لا تنس من أين أتيت، لا تنس أن بلدك الأصلي مسجَّل في وجهك، إنه هنا، أردت ذلك أو لم ترد، أنا، لم أشك أبداً في وطني. أما أنتم، فلا تعرفون من أي بلد أنتم، نعم، أنتم تقولون عن أنفسكم إنكم فرنسيون، أعتقد بأنكم وحدكم من يعتقد ذلك. أتعتقد بأن الشرطي يعاملك كفرنسوي مئة بالمئة؟ نعم، إن ذهبت إلى المحكمة، سيقول القاضي إنك فرنسوي، إنه مضطر، لكنه في قرارة نفسه ينظر إليك على أنك أجنبي أو لقيط. يقال إن فرنسا ولدت حشداً من الأطفال مع امرأة جاءت من مكان آخر، وإنها نسيت تسجيل أبنائها، أريد القول الاعتراف بهم، هذا غريب، وفي كل الأحوال، لا شيء سيكون سهلاً بالنسبة لكم. حين وصلنا، كان يوجد قبلنا مهاجرون. أناس من إيطاليا، إسبانيا، البرتغال. كانوا ينظرون إلينا بعين غير ودودة، في الواقع، وشيئاً فشيئاً، لم يبقوا مهاجرين. فستدخل بلدانهم كلها في أوروبا، ونحن، نحن بقينا على الرصيف، أريد القول في الطوار، كانوا يريدوننا، لكن بقدر ما نبقى كتومين، كان ينبغي ألا نتحدث، ثم ذات يوم، كنت قد وصلت للتو، قرر الجزائريون الذين كانوا في حرب استقلال وطنهم أن يتظاهروا في شوارع باريس، لم أكن هناك،

لكنني أعرف أن عدة شقق لجزائريين بقيت فارغة بعد المظاهرة، فسكانها ماتوا. كنا نتحدث عما جرى بشكل خافت. كنا خائفين لأن الشرطة تحوم حول الحي.

لا تنس أبداً من أين أتيت، يا بني، قل لي هل حقاً تدّعي أن اسمك ريشار؟ ريشار بن عبد الله: إنهما متوائمان. تحمل الاسم الشخصي لكن الاسم العائلي يفضحك: بن عبد الله، ابن محب الله! هذا ثقيل! ماذا فعلت؟ غيرت الاسم أيضاً؟ آه حذفت محب الله، وتركت فقط بن، نعم، يمكن أن يشتبه في أنك يهودي، هذا هو، تريد أن تمحو أصولك، والعثور على مكان صغير، مقعد صغير عند الفرنسويين، تفضل أن تكون يهودياً، قل لي، هل خدمك ذلك؟ هل وجدت بسهولة عملاً؟ هل قمت بذلك، لتدخل إلى مرقص ليلي؟ لم يجبني، فقد ذهب جارياً. . ريشار! وأنا الذي نحرت كبشاً جميلاً في يوم عقيقته! رشيد أكثر جمالاً من ريشار، الحاصل، ماذا بإمكاني أن أفعل؟ عليّ أن أبقى سعيداً، لأنه لم يمحني كلية كما فعل عبد الملك، ابن جارنا الذي ذهب مع عائلة أمريكية، وبقي عشر سنوات من دون أخبار حتى اليوم الذي عاد فيه إلى البلد وهو يسمى مايك أدلي (تنطق مايك أدليي) كان يتحدث الأمازيغية بلكنة أجنبي. كان مضحكاً، ولم يكن يعرف حتى أن أمه قد ماتت. رأى والده، وأعطاه دولارات، ثم حياه كما يمكن أن يفعل سائح، واختفى، أدلي مايك أدلي! لكن ماذا يغيرهم في هذه البلدان العصرية؟ إنها، ربما، طريقتنا في العيش التي لم تعد تثير اهتمامهم أبداً. لم نعد أبداً جذابين، لم نعد أبداً

محبوبين، لقد تمّ تجاوزنا، إننا نلحق بهم العار. لم أرتكب في حياتي أي جرم، لم أكذب ولم أسرق أو أغش. كنت دائماً مستقيماً، بقلب مفتوح، أريد القول: لم يكن لدي ما أخفيه، اشتغلت لكي لا ينقصهم شيء. كنت أمنحهم دائماً عطلاً وهدايا، كنت أبداً شريفاً، شريفاً جداً. وأولادي لا يريدون أن يشبهوني، لماذا؟ أقفلت على نفسي في الحمام، ونظرت إلى نفسي مطولاً في المرآة. رأيت شخصاً آخر، رجلاً كبيراً في السن، وجهاً وسمه الزمن والعمل الشاق، ماذا فعلت بحياتي؟ اشتغلت كل الأيام، والوقت الباقي قضيته نائماً لكي أستعيد قواي، إنها حياة لها لون وزرتي. لم أتساءل أبداً هل كان بإمكان حياتي أن تتخذ ألواناً أخرى. حين أكون في البلد لا أطرح على نفسي كل هذه الأسئلة، أنا في وئام مع الطبيعة، ولو أنها مصفرّة بسبب الجفاف، أنا في بيتي، لم يكن لهذا الإحساس نظير في أي مكان في العالم. كيف يمكنني التعبير عن هذا الإحساس؟ هو أن تحس بالأمان حتى حين يهدر الرعد والصواعق، حتى حين لا يكون هناك ماء ولا سكر. . . الأمر هكذا، هنا، لم أحس أبداً بأنني في بيتي، في بيتنا، هذا ليس خطأ أحد. الأمر هكذا. لا أتهم فرنسا ولا المغرب، لا جون ولا جاك ولا مارسيل، لا الملك ولا الملكة، لا لست في بيتي، ولا في أرض أليفة، ربما، أطفالي لا يطرحون هذا السؤال، وهذا أفضل، لكن أنا جئت إذن لكي لا أحس بنفسي في بيتي، ولكي يحسوا هم بأنهم في بيتهم. . لكن أين يوجد بيتهم؟ لم أسافر قط خارج فرنسا. كانت لجنة الشركة تنظم

رحلات إلى إيطاليا، إلى إسبانيا وإلى كل البلدان الشيوعية، لم أرد أبداً ترك أولادي والذهاب لبضعة أيام لاكتشاف مدن أخرى، لم أكن في حاجة إلى ذلك، ربما كان عليّ أن أسافر، لا أعرف كيف يكون الواحد أجنبياً، سائحاً في بلد أجنبي، لم يكن لديّ الوقت للقيام بهذا النوع من الأشياء..

من حسن الحظ أن نبيل هنا، نبيل هبة من الله، نور حياتي، كان مثلي لا يعرف القراءة ويكتب بصعوبة، لكن فيه شيء عجيب، إنه ملاك. حين يدخل إلى حجرة يرصد بسرعة الأشخاص الذين لا يقبلون وضعه، أو الذين يبدون نفوراً، فيتجاهلهم. إنه غير قادر على الشعور بأحاسيس سلبية. بالنسبة لي، كان أكثر من ابن: بوصلة، دليلاً، شعاع شمس في حياة رمادية، بسمة تمحو كل حزن العالم. أحب أن أخرج معه لنأكل في المطعم. يحب أن يلبس وأن يحتفل، ومن أجله كنت أضع ربطة عنق. وهو يحرص عليها، بدونه أعتقد أن حياتي كانت ستكون أكثر حزناً، أكثر صعوبة، أشكر الله الذي بعثه إلينا. حين يلتقي والديه في البلد لا يتوقف عن الحديث معهما، يحكي لهما حياته بكلمات لا يفهمها أحد، وهو يعرف هذا، لذا يعمد للحركات ليتسنى فهمه، وهنا يضحكهم، إنه مهرج، ممثل كوميدي، وهو من جهة أخرى يلعب أدواراً مسرحية، يحب أن يلعب، وأن يقوم بأدوار خداع، وحركات بهلوانية. إنه مرن جدا، مبتكر حتى إنه يدهش الجميع، أعتقد أنه لو كان قد بقي في البلد، لكان اليوم مثل خضرة، يسيل لعابه، وبدون رغبة في الحياة. في البلد لا نقوم بأي شيء من

أجل هؤلاء الأطفال، نتركهم في الخلاء مثل الحيوانات، لا أحد يؤذيهم، لكن لا أحد يرعاهم أيضاً. في فرنسا، دخل المدرسة، وكان يقوم بتمارين رياضية، تعلّم الموسيقى. إنه سعيد، أنا أخاف عليه. ذات يوم، هو من قال لي: أنا أخاف عليك، قال لي ذلك بجلاء. ربما هو الشخص الوحيد في العائلة الذي كان يفهمني. لقد رأى أنني حزين، مهموم، لست سعيداً، وقوله هذا جعل الدموع تطفر من عيني. يخاف عليّ! معه حق. أنا أيضاً يحدث أن أخاف على صحتي، على توازني، لا أتكلم، لكنني أفكر، أفكر طوال الوقت. وهذا لا يُرى، زوجتي المسكينة، لا ترى كل هذا. ليس باستطاعتها أن تفهم كم أنا حزين. لكنني لا أريد أن أسبّب لها ألماً. إنها أم عائلة شجاعة، لا تعيش إلا من أجل أطفالها، أنا أيضاً أعيش من أجلهم، غير أنني بدأت أنتبه إلى أن هناك شيئاً على غير ما يرام. لذا أفكر في نبيل، فتعود الشمس إلى قلبي. إنه الطفل الوحيد في العائلة الذي ينير أيام الأحد. ذات يوم كافأه مدير المدرسة بأن وضعه في لائحة الشرف. كان نبيل سعيداً، لكنه لم ير شيئاً لذا تساءل: أين اللوحة؟ ضحك الجميع وهو أيضاً، فعلها عن قصد ليفرج الأجواء، ابنتي الصغرى هي التي ترعاه أكثر، لديها شغف بهذا الطفل الوديع جداً، الحساس جداً. . في يوم آخر، تعارك في ساحة الاستراحة لأن صبياً نعته بـ«مصاب بالمنغلة» فأعطاه درساً جيداً، نبيل رياضي، ممشوق القوام، عضلاته جميلة. إنه لا يعتبر نفسه معوقاً، ويحب مساعدة الناس الذين هم في وضعية صعبة، حين يرى شخصاً

يجد صعوبة في السير، فإنه يذهب ويأخذ يده ويساعده في العبور. لنبيل ملكات مخفية. ذات يوم كنا عند مارسيل، فجأة سمعنا أحدهم يعزف على البيانو، لم يكن الأمر يتعلق بمبتدئ يعزف كيفما اتفق، إنه نبيل الذي كان قد جلس بهدوء وبدأ يعزف بكيفية مرتجلة. اندهش الجميع وافتتنوا، إنه صبي مستقل، دقيق جداً، ومهووس بعض الشيء.

6

تابعت نتائج الانتخابات، لوبن فاجأ شيراك، ضحكت ملء شدقي، لكن زوجتي خافت، قالت لي: ربما علينا أن نعد الحقائب. قلت لها: لا، لا تهتمي، لوبن في حاجة إلينا، نعم، تخيلي هذا البلد وقد أفرغ من مهاجريه. لن يعود بإمكانه أن يقول بأننا أصل الشر، وسبب انعدام الأمن، وبأننا نستغل الضمان الاجتماعي وتعويضات الأطفال. سينزعج إذا لم يكن هناك عرب تحت يده. لا، لا تخافي، إنه يستعرض، لن يصل أبداً إلى السلطة، ومن يعرف. السياسة أراها أحياناً في التلفزة، حين يتحدثون عنا فهذه إشارة سيئة. لا يقال، أبداً، كلام طيب عن عملنا، الأمر كان دائماً هكذا، ولقد اعتدت عليه. تعرفين أنني أكره الحقائب، الأكياس المخططة المشتراة من باربيس والمسماة أكياس زمكري، أكره الصناديق المليئة بعدة أشياء لا فائدة منها، والتي يجب نقلها إلى البلد ليتم توزيعها على من بقي، أكره الأحمال، الهدايا الإجبارية، الحاجات التي تتكدس في الطابق الأرضي، أكره الأشياء اللماعة والتي لا تساوي شيئاً، أنت تخافين أن ينقصك شيء، لذا تأخذين معك أشياء عديدة،

حتى أبداً أنا أيضاً في الشك. أقول لنفسي: ربما ستندلع الحرب، ومن الأفضل إعداد عدة أشياء، لا أحتجّ، ولا أقول شيئاً، أتركك تفعلين. شاهدت إذن لوبن إنه يخيف، لديه يدان سمينتان، من شأن صفعات من يده أن تولّد نجوماً، نجوماً مزيفة، لا أعرف لماذا، ولكنني لا أستطيع أن آخذه مأخذ الجد، إنه يضحكني، وأتخيله دائماً في وضعيات غير مشرّفة، إنه من أولئك الفجّار، لكنني أعرف أن هناك لوبنات في هذا البلد، إنهم لا يتحدثون مثله، لكنهم لا يحبوننا، من أين يتأتى عدم حبهم لنا؟ ماذا فعلنا من أمور فادحة لكي نكون موضع شبهة، وأحياناً تساء معاملتنا في الشوارع؟ سمعتنا ليست براقة، سمعة تأتي من بعيد، ربما من حرب الجزائر، وربما أبعد من ذلك، بالطبع هناك حكاية السمكة الفاسدة التي تفسد كل أسماك الصندوق. ما العمل إذن؟ التصاغر؟ إننا خبراء في التصاغر، في كل الأحوال، أنا ورفاقي نتصرف بتصاغر، لا نرفع أصواتنا حتى حين نكون ضحية ظلم أو عنصرية دارجة، إننا لا نريد حكايات، ما العمل؟ نعبر! لا نوجد، نصير شفافين ونحن نواصل الكد. وفي الواقع سيكون ذلك مثالياً: أن تكون هنا، أن تفيد، وتكون ناجحاً، ثم لا تظهر، لا تنجب أطفالاً، لا تطبخ بتوابل ترسل روائح مزعجة، لقد فكرت دائماً في هذا. ما العمل ليكون المرء أكثر تكتماً، أو ليشتغل كما لو أنه لا يوجد؟ من قبل، في كل الأحوال، حين جئت إلى فرنسا، لم يكونوا يتحدثون عنا. كنا في أحياء عبور، ثم لم نكن نذهب تقريبا، أبداً، إلى المدينة، لكن مع مجيء أطفالنا، خلفت الأشياء ضوضاء، ضوضاء

صاخبة، لذا لم أطلب الجنسية. أنا في وئام مع جواز سفري الأخضر، مع بطاقة الإقامة لعشر سنوات. لست في حاجة إلى جواز سفر بلون آخر. يظهر أن الفرنسيين لا يحبوننا كثيراً نحن المغاربة، لكنهم يكرهون الجزائريين، الجزائريون المساكين، لا حظّ لهم. كان بلدهم محتلاً في كل الأوقات. اليوم الجزائر غنية جداً، رأيت هذا في التلفزة، لديهم البترول والغاز، لديهم كنوز تحت الأرض بإمكانها أن تؤمن لهم القوت لقرون، ورغم ذلك، فالجزائريون يهاجرون، وعدد القادمين منهم للاستقرار في فرنسا في ازدياد. هذا محزن، بلد غني وشعب فقير جداً، لست أنا من يقول ذلك، لكن يقوله مناضل من أجل حقوق الإنسان في الجزائر، في المغرب الأمر مختلف، إننا فقراء، كنا دائماً فقراء، سكان المدن يعيشون أفضل من سكان البوادي، لكن نحن، لدينا المخزن، والمخزن هو القائد، الباشا، العامل، وهم يمثلون السلطة المركزية التي تحكمنا، لا نعرف كيف تشتغل، لكن المخزن هو الدرك، الشرطة، والجيش الذين يفعلون ما يشاؤون. ليس للمسكين حق، ينبغي أن يتحمل ويصمت، ومن يتكلم يتم تغييبه. هذا هو المغرب الذي تركته عام 1960، قبل أن آخذ القطار، ثم الباخرة، ثم القطار نحو للاّ فرنسا. لم أتكلم أبداً في السياسة، لكنني أعرف أن ابنيْ جزار ايمنتانوت اختفيا. جاء رجلان وقدّما نفسيهما كمبعوثين للوكالة العقارية «داركم». جاءا يبحثان عنهما ليرياهما أرضاً عرضها أبوهما للبيع، رافقاهما في سيارة مرقمة على أنها جديدة، بينما كانت قديمة جداً، لم يعودا أبداً، ذهب أبوهما إلى مراكش مقتفيا أثر الوكالة التي لم

توجد أبداً. جُنّت أمهما، وأغلق أبوهما حانوته، كان ذلك في صيف عام 1966. كانا طالبين في الثانوية بمراكش. حين أعود في الصيف يحدثونني عن الشباب في السجن بصوت خافت، رغم أن لا أحد حولنا. الخوف، نعم لقد عرفت الخوف، خوف من أن يؤخذ مني جواز سفري، وهو ملكية ثمينة، خوف من أن أسجن بدون سبب، كما وقع للحسن الذي بقي في كوميسارية المطار أكثر من يومين. تم نسيانه. حين أعيد له جواز سفره قال له الشرطي: أنت المحظوظ بالعيش هناك، فكر في أخيك، أفرغ قليلاً من جيوبك، يجب التعاون، هذا طبيعي، هناك من له كل شيء، ثم هناك الذين ليس لهم تقريباً أي شيء، لذا يعانون. لن تترك أخاك يعاني، يفهم من يريد يا صديقي! أعطاه لحسن الأوراق النقدية التي كانت معه وغادر الكوميسارية والرأس مخبول بسبب صداع شقيقة قوي.

من حسن الحظ أن هذا المغرب لم يعد له وجود، انتهى عهد الخوف وعهد المخزن الذي يتصرف من دون أن يحترم القانون والحقوق. انتبهت لذلك، وأنا أجتاز الديوانة في طنجة. فبين عشية وضحاها صار رجال الديوانة ودودين، ولا يشكون في أننا ننقل مخدرات أو أسلحة. يظهر أن الملك الجديد أعطى أوامره بألا يتحرشوا بنا. إنه جيد هذا الملك الشاب، إنه على النقيض من أبيه. فيما مضى، كان بيننا مهاجرون يشتغلون مع شرطة الرباط أو القنصلية، كنا نعرفهم، لأنهم يبدأون في انتقاد سياسة الملك. أنا، كنت أقول: عاش الملك، عاش المغرب! لم أترك لهم ما يحملون لرؤسائهم. إنه مارسيل، المندوب

النقابي، هو من نبّهني. أتعرف سلام هذا، أتعرف بأن الشخص الذي وصل لتوه من روبي في الواقع لم يشتغل أبداً في روبي. لقد جاء مباشرة من الرباط، ومهمّته أن ينقل أخباراً عن الجالية المغربية المهاجرة. وهناك أيضاً شخص آخر، الشخص النحيف جداً الذي يُدعى فلفلة. ساعدتنا س.ج.ت، دائماً هي التي كانت تنظم دروس محو الأمية أيام السبت والأحد في بورصة الشغل. كان هناك طلبة شبان في باريس، أشخاص من المدن، مراكشيون وفاسيون، كازاويون ينتقلون بالتناوب ويعطوننا الدروس. كنا نحب كثيراً فترات ما بعد الظهر هاته. كانت بالنسبة لنا لحظات استرخاء. نتحدث عن البلد، تشرح لنا عدة مسائل، أحياناً يعيننا الطلبة في كتابة رسائل لعائلاتنا، ويعينوننا، خصوصاً، في ملء ملفات إدارية متعلقة بالتقاعد، أو الديون البنكية... إلخ. كنت أفضل أن أكون هناك، رغم أنني كنت أجد صعوبة في تعلم بعض الكلمات، عوض تمضية اليوم في مقهى أراقب الناس يروحون ويغدون. تعلم القراءة صعب في سنّي، رغم أنني تعلمت السياقة بسهولة كبيرة. كنت أحدق في اللوحات وأسجلها في رأسي. كنت دائماً حذراً. أعرف قانون الطريق عن ظهر قلب. أواجه مشكلة حين أجد نفسي أمام تحويلة طريق، هنا أنا تعيس وأخطئ، آخذ طريقاً يعيدني إلى الخلف. أكره الأشغال في الطرق وتحويلاتها. أعرف طريق فرنسا-المغرب عن ظهر قلب. أسوق بهدوء. أتوقف من حين لآخر للراحة. أحس بألم في الظهر، أقوم بتمارين رياضية. إنها الرغبة في التبول هي التي تضطرني، دائماً، للتوقف، هكذا تم

اكتشاف السكر في الدم. شرح لي طبيب مغربي شاب بشكل جيد كيف نصاب بالسكري، ومنذئذ صرت أحتاط. أعترف بأنني أنقاد في البلد. لقد خلقت لهذا: أن تنقاد، ألا تحتاط، أن لا تحترم القواعد، من الصعب رفض كأس شاي، الناس يغتاظون إن فعلت ذلك، لذا أشرب هذا الشاي الطافح بالسكر، وأدعو الله لكي يعينني على حرق كل هذا السكر الزائد في دمي.

رفض إبراهيم أن يتعلم القراءة والكتابة، كان يحب شرب البيرة ومخالطة خديجة المومس التي تصبغ شعرها بالأبيض، وتدّعي أن اسمها كاتي. لم تكن سيئة، لكن المسكينة فقدت أسنانها في عراك مع قوّادها، وكانت تعمل منظفة بهذا البار. كانت تثير الشفقة، لم يعد أي رجل يريدها، لذا كانت تجد العزاء في الشرب. يوم السبت تجلس في طرف الطوار بسوق الخردة بسان أوين، وتشِم بالحناء أكفً وأيدي البنات الصغيرات. كانت موهوبة في هذه الرسومات المزخرفة التي ترسمها بمهارة على جلد الفتيات. كان محمد يعرف جيداً قصتها، لكنه كان يبقى بعيداً عنها بسبب الخجل، لا بسبب وازع أخلاقي أو ديني. ذات يوم اقتربت منه، كما لو أنها كانت تعرفه، طلبت منه أن يغيثها، لم يعرف كيف يتصرف، خصوصاً حين أخذت يده وقبلتها. قرأ الاستغاثة في وجهها، وأخرج ورقة نقدية ووضعها في يدها. فكر في أن هذه التعيسة ضحية للهجرة. ثم قال في نفسه: هذا قدرها، لو أنها بقيت في البلد، لسارت أمورها بشكل سيّئ، كل مكتوب مكتوب، ولا شيء

يحدث بالصدفة، وفي الوقت نفسه هو يعرف أن الكائن مسؤول عمّا يصدر منه. توقف وتساءل: إذا دخلت إلى هذا البار، وشربت حتى الثمالة إلى درجة أنني أفقد توازني الجسدي وكرامتي كإنسان، فإنني أنا المسؤول، وليس الله هو الذي قرر في مكاني. أن أرتكب حماقة، ثم طناً من حماقات أخرى، فأنا وحدي المذنب، لنترك الله فوق كل هذه الأشياء. لذا، إن واصلت سيري، وانزلقت فوق قشرة موز وانكسر عمودي الفقري، فهل الله هو الذي أراد أن ينكسر ظهري؟ أم هو الوغد الذي رمى قشرة الموز، من دون أن يفكر في المارة الذين بإمكانهم أن ينزلقوا وتنكسر عظامهم؟ لا، ينبغي ببساطة الانتباه، ورؤية أين توضع الرجل. لكن أليست الوضعية التي تضعنا فيها لانتريت ضارة، سيئة، ومولّدة للحزن والاكتئاب؟

أعاني من آلام عضلية، بينما لم أعد أشتغل، ومن وجع في المفاصل، أحس بجسدي مهدوداً. يعيث فيه تعب غريب، وهذا مثير للاستغراب. لم أعرف أبداً هذا التعب، لأنه يجيء من اللاشيء الذي استقر في حياتي، وبدأ يقضم أعضائي، الفراغ يحفر في جسدي، أتألم، ولا أشتكي، ليس هذا من عاداتي، لكن ومنذ أن أصبت بلانتريت، لا شيء على ما يرام. كنت أحب تعب نهاية النهار ، كانت زوجتي تحضّر لي عشاء خفيفاً، بينما كنت أغتسل. أنظر إلى الأطفال، وحين يصل موعد نشرة الأخبار في التلفزة كنت أحس بالنوم يلوّح لي، أقوم وأسقط على السرير وأنام بعمق. أفتقد هذا التعب الجميل اليوم. لقد عوّضته بتعب آخر أكثر مكراً، أكثر إزعاجاً. أعتقد

أنني مريض. ذات يوم قال لنا طبيب العمل، حذار إن استيقظتم في الصباح، وأنتم تحسون بالتعب، فذلك يعني أن هناك مرضاً يختبئ ولا يجرؤ على الإفصاح عن نفسه، ربما هذا هو الحال، لكنني لا أرغب في استشارة الطبيب.

أحس بقليل من الخجل أن أقول إنني في بدايات لانتريت، واصلت الاستيقاظ مع تباشير الفجر، ألبس وزرتي، آخذ الكميلة، وأذهب إلى المصنع، أقوم بذلك بشكل آلي. لا يمكنني أن أقاوم هذه الحركات التي حفظتها عن ظهر قلب، والتي صارت جزءاً لا يتجزأ من حياتي، من جسدي، ومن روحي. ليسامحني الله، ينبغي ألا أدخل الروح في هذا، كنت أصل إلى بوابة المصنع ثم أقفل راجعاً. أرى الرفاق يدخلون فرحين، متمازحين، ومستعدين ليوم طويل وجيد في المصنع. كنت أحس بالخجل، لم يكونوا يفهمون لماذا أعود إلى المكان، ولم أكن أرغب في أن أشرح لهم، في أن أكلمهم، ولا أن أبرز نفسي في أعين أحد، باستثناء زوجتي، لم تكن تقول شيئاً، لكنها تنظر إليّ نظرة غريبة، ماذا سأفعل الآن بوزرتي الرمادية، بكميلاتي، بنظاراتي الوقاية، بأوراقي، بأيامي الحرة، بكل هذا الوقت الذي يسقط عليّ كردم؟ إنني لا أستطيع حتى أن أوصي أحد أبنائي بكل هذا. إنهم لا يعرفون أنني سقطت في لانتريت، إنهم لا يطرحون عليّ أسئلة، إنهم يمرّون بسرعة، ثم يذهبون من دون أن يكترثوا لحالتي، أراقبهم ولا أستطيع تصور أبنائهم يعاملونهم بهذا الشكل. كل شيء يتغير، من الصعب قبول تغير العالم بسرعة.. لم يحضّرنا الجدود، لم

يقولوا لنا شيئاً. إنهم لن يتصوروا، أبداً، أن رجالاً سيهجرون أراضيهم ليذهبوا للعمل في الخارج.

بتفكيره في المسألة، كان على يقين بأن لانتريت قتل إبراهيم، كل من يراه يتسكع في الأزقة، يشرب عند كاتي ويسير وهو يترنح حين يقرر أن يعود إلى بيته. كانت زوجته قد عادت إلى المغرب. هي أيضاً كانت تحت تأثير غلام، إنه أكثر من ساحر، إنه أيضاً مرشد في أمور الزواج، إنه هو من شجعها على العودة إلى البلد لتحمي نفسها من تلك الساحرة المدمرة للرجال. أتفهمين، المسكينة، إنها خرقة، ومن الأفضل لك أن تتجنبيها، خذي زوجك واذهبي إلى البلد، على الأقل ليس هناك بار ولا كاتي ولا كحول. زوجك يفتك به الضجر منذ أن لم يعد يعمل، فهو طول الوقت محشور عند تلك المرأة التي تثير الشفقة، لكن أنت، إن أردت استعادة زوجك، خذي زمام الأمور بيدك، وإلى الأمام، خذي هذا الطلسم، ضعيه في حقيبتك، خذي هذا الآخر، دسّيه في الجيب الداخلي لسترة إبراهيم، مبدئياً هذا سيعينكما أنتما الاثنين، لكن، وكما تعرفين، كل شيء بين يدي الله القوي الجبار.

رفض إبراهيم السير وراء زوجته. اكتشف قطعة الثوب المخاطة في سترته فمزقها ورماها وداسها برجله. أردت أن تعملي عملاً، طيب، أنا أتبول على عملك، هيا اذهبي، عودي إلى والديك، واتركيني وحدي، أنا مرهق...

وجد إبراهيم نفسه وحده في شقتهم التي أفرغ نصفها. كانت الأواني تتراكم في المطبخ، الثياب المتسخة تتكوم في

ركن الصالون. أخذت زوجته معها صوراً للعائلة، بقيت معلقة في الجدار، صورة منظر تحت الثلج، ربما جبال سويسرية أو كندية. صار الأمر جميلاً في هذه الشقة التي لم يتبق فيها شيء من مسقط الرأس، ابناهما الاثنان يعملان في الخارج. كانا يكلمانه من حين لآخر. قطع الهاتف بسبب عدم تسديد الفواتير. بقيت الرسائل مغلقة. ترك إبراهيم نفسه تهوي تدريجياً. عاش أزمة كبد. كان يحس بالألم في كل شيء، كان يصيح من الألم. استدعى الجيران طبيباً أخذه إلى المستشفى. اتصل بابنيه على أرقام هاتف وجدها في مفكرة، ولكن لم يجد لهما أثراً. جعله الألم القوي جداً يفقد ذاكرته الآنية. قام محمد بزيارته، كان شاحباً شحوباً مخيفاً، نحيفاً، وعيناه مصفرتان، وشفتاه يابستان. لم تعد لإبراهيم الرغبة في الحياة. قال له محمد إن ذلك محرَّم في دينهم. تلا بضع آيات يعرفها عن ظهر قلب، واعتصر يده، وهو ينحني ليقبّل جبهته، وحين نهض كانت الدموع تسيل على خديه. بقي قليلاً، وانصرف صامتاً وهو يفكر في موته الخاص، هذا الطفح من العزلة، الطفح من الجحود، الطفح من الصمت، تركوه بدون صوت. لكن أين ذهب الإخوة، الأصدقاء، رفاق المصائب؟ هل هكذا يرتاح المهاجرون من العالم؟ كان لتلك العزلة رائحة دواء مخلوط ببعض النتانة القادمة من مكان آخر. شيء ما يحوم حول الساكنة التي لا يتوقع أحد الكيفية التي ستنسحب بها من العالم.

7

يعيد محمد التفكير في التقاعد، ولا يحس بنفسه في وضع أحسن، وحين ينقصه اللعاب يشرب كؤوس الماء، لم يكن الأمر يتعلق بالسكري الذي يهاجم جسده، وإنما بالتقاعد القريب. كان يستولي عليه، يجعله يرى صوراً مظلمة. توصل من البنك الشعبي، وكالة شارع كليشي، بالوثيقة التي تجدد تأمين نقل «جثته إلى الوطن»، ورقة يبعثها البنك مرة في السنة، ورأى في ذلك علامة، صدفة سيئة. لم يكن الخوف من الموت بعيداً عن وطنه يفارقه، يرى نفسه في مستودع الأموات، الجسد مغطى بغطاء أبيض، وقد تُرك هناك لعدة أيام، الوقت الذي تتم فيه تسوية المشاكل الإدارية، ثم يرى نفسه في صندوق عائداً إلى الوطن مع مواد تجارية، يرى زملاءه يجمعون ما يعينون به عائلته، يرى كل شيء بتفاصيله حتى إن جسده يقشعر. لا، أنا، لن أعود في صندوق، ليس كإبراهيم، لا، سأستبق الموت وأنتظره بهدوء في البلد، لست خائفاً منه، أنا مؤمن، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. بالنسبة للموت، الله وحده يقرر، أنا على يقين من هذا، هذا مكتوب، بل إنني أعتقد بأن كل شيء

يحدد يوم السابع والعشرين من رمضان، ليلة القدر خير من ألف شهر، لذا، بالنسبة للموت سأدبر نفسي لأتفادى الصندوق حتى لو كنت أحتضر، سآخذ الطائرة، أنا الذي أكره هذه الآلة، سأموت في بيتي، وليس عند غرباء، أناس لا يعرفون أي شيء عن ديني، عن تقاليدي، ستقولون لي: وأطفالك؟ آه، هنا، أنا أتألم، أنا أتألم كثيراً، لا، أطفالي سيكونون تعساء جداً، لكن هل سيعيدونني إلى البلد؟ هل سيغسلون جسدي كما يفعل المسلمون؟ إن دفنت في البلد، فهل سيأتون ليترحموا على قبري؟ ربما في البداية نعم، ثم بعد ذلك سيتكاسلون عن القيام برحلة لرؤية قبر محاط بأعشاب طفيلية، أكياس بلاستيكية، قنانٍ فارغة، أوراق جرائد ملقاة من طرف زوار ليس لهم أي حس مدني، كثر هم المغاربة الذين يلوّثون المقابر، كما لو أن الأموات ليس لهم الحق في نظافة محيط قبورهم.

أجد صعوبة في تخيل أبنائي يجتمعون، ويتذكرون والدهم في يوم جمعة، وبالضبط قبيل صلاة الظهر، رفع اليدين مضمومتين، وقراءة بضع آيات من سورة «البقرة»، والابتهال إلى الله ليكون رحيماً بروحي، لا أراهم يخصصون حيزاً زمنياً في عطلهم للقيام بهذه الحركات التي لا فائدة منها ظاهرياً. هذا لا يعني أنهم لن يفكروا فيَّ، سيتذكرون أباهم بالطريقة التي يريدونها، لكنهم سيتذكرونه، حين أذهب إلى قبريْ والديّ، تتملكني رعشة، أجلس فوق حجرة كبيرة وأخاطبهما، كما كنت أفعل في السابق، أحكي لهما عن حياتي وحياة الأشخاص الذين كانا يحبانهم، أعطيهم التفاصيل خصوصاً لأمي التي كانت

فضولية جداً. ما زلت أسمعها أيضاً تصوِّب لي اسم خطيبة البقال، وكم من الأطفال له من الزوجة الأولى، أسمعها تسألني هل ما زالت خالتي جد بخيلة وشريرة، هل ما زال أولادها جد انتهازيين وقذرين، أتخيل كل هذا وأبتسم، إنها شعيرة أحبها جداً، ثم أذهب لأصلي في المسجد الصغير وأقدم الصَّدَقة، لنوقف هذه الأفكار السوداء، أبنائي لن يتركوني أبداً، أفضِّل ألا أتصور أنهم سينسونني، في السنة الماضية دفنّا جزائرياً مسكيناً في بوبيني، وجدنا صعوبة في العثور على مكان صغير في مقبرة المسلمين، لم يرد أولاده إرسال جثته إلى بلده، كانوا يقولون إن الجزائر لم تعد أبداً بلدهم ولا فرنسا أيضاً، لذا لا تهم الحفرة التي يوضع فيها جسده، في كل الأحوال ما يهم، هي الروح، وما إن تهجر الجسد حتى تسير عند الله، لكنني لا أحب ترك جسدي في حفرة فرنسية، ما أقوله بليد، لكنني إن كنت متأكداً من أن أولادي سيأتون دائماً لزيارة قبري إن بقي جسدي مدفوناً في فرنسا، فليس هناك مشكل، سأعطي جسدي إلى للاّ لافرانس، سأجعل الأشياء أكثر سهولة بالنسبة لهم، أشدد على هذا سواء كانت أفكاراً سوداء أو رمادية، في قرارة نفسي، أود حقاً أن يأتوا حتى البلد لكي يجمعوا بعض قراء القرآن حول قبري، والجمعة أفضل يوم للقيام بذلك، ثم يوزعوا قليلاً من النقود على المتسولين الكثر. منذ عدة سنوات، صار الأفارقة هم من يتسولون على جنبات المقابر، المساكين، هجروا مساكنهم للذهاب للعمل في أوروبا، ساروا أياماً وليالي، ثم تم التخلي عنهم، إنهم يتسولون ليبقوا أحياء، إنهم

متسترون، بعضهم ينزعج لكونه وصل إلى هذا، ومنذ أن لم أعد أعمل صرت معذباً بهذه الأفكار، الموت، قال لي حلاب، هذا الذي يقدم نفسه كإمام: الموت لا شيء لا تحس بأي إحساس، الأمر شبيه بالنوم نوماً عميقاً. قلت له: إذا كان الموت لا شيء فلماذا تخيف الناس به؟ إذا كنت في سلام مع نفسك، إذا لم يكن هناك ما تؤاخذ نفسك عليه، فستكون سعيداً بالذهاب عند الله الذي سماواته واسعة ومليئة بالخير والرحمة. . ماذا يعرف حلاب الشجاع؟ إنه يكرر ما يقوله القرآن، لن أعارض القرآن أبداً، لكنني أعترف بأنني في بعض المرات في الليل أصحو، غارقاً في العرق وأرى الموت، ليس الهيكل العظمي الذي يحمل منجلاً تلمع شفرته، ولا سيدة تلبس الأسود، لا، الموت رائحة، رائحة قوية خانقة، تأتي مسبوقة بريح شمالية صقيعية، تهز الملاءات، تعبر الجسد الذي يرتعد من البرد، تتجمد الأرجل، وتمتلئ بالتنميل، وتصير جامدة، لقد تخيلت كثيراً ما هو عليه الموت، حتى إنه ليس بإمكانه أن يقوم نحوي بعمل شيء. كنت أعرفه، رأيته في وجه إبراهيم، أعرف ماذا يشبه، وكيف يتصرف. في هذا، أحس بنفسي مطمئناً، أعرف أنه ما زال بعيداً عن حجرتي، بعيداً عن حياتي.

كان حلاب قد وجد الحل، يتخذ هيئة فقيه في الدين، والدين يساعدنا على هجران هذا العالم؟ بالطبع، الإنسان ضعيف، إنه ليس شيئاً أمام كبر العظمة الإلهية.

كان يكلمني، ويكلمني، يستشهد بأبيات من الشعر الإسلامي، وأنا لا أتمكن من فصل تفكيري وعيني عن ذلك الصندوق المصنوع من خشب رديء، والذي سيضعونني فيه إن مت. منذ صغري، كنت أسمع دائماً القول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، إنها الصيغة التي تقال حين يدفن أحد المسلمين، بالنسبة لي الأشياء بسيطة، إنا لله، أنا ملكه، وهو يأخذ ما يمتلكه حين يريد، وليس هناك ما يدعو للإحساس بالخوف ولا الإهانة، لا، ليس الموت إهانة، ولو أنها تجعلنا في غضب، ولكن ينبغي العلم بأن غضبنا دخان يتبدد، قليل من الضباب يصعد نحو السماء. أنا من جهتي، المرض هو ما يخيفني، أن تعاني قبل أن ترحل، هذا ما لا يحتمل. ثم إنه يقال عندنا بأن المؤمن الجيد، الرجل الملتزم بتعاليم الله يُبتلى بالمعاناة، بل بالظلم: المؤمن مصاب، لا أفهم لماذا يعاني مسلم جيد، مخلص، مستقيم، لا يحيد أبداً عن الصراط، أكثر من الأوغاد، والله يعرف أنهم كثر، وفي كل مكان، إنهم ينجحون، يربحون النقود من دون أن يكدوا ويتعبوا، يملأون بطونهم بما يملكه الآخرون، وهم في صحة جيدة، يأكلون أكثر من الآخرين، ويقولون: الحمد لله! الشكر لله! ثم يتجشأون وهم راضون عن أنفسهم، أراهم في كل مكان، هؤلاء اللصوص المتنكرون في هيئة أبناء عائلات راقية، إنهم كثر، ولا شيء يقع لهم، ولو حتى ألم في الرأس أو وعكة صغيرة. ينامون جيداً، يمارسون الرياضة ويعطون الزكاة، العشرة في المئة التي خصصها الإسلام للمحتاجين، أتذكّر دائماً الشخص الذي جاء من مراكش، من

طرف مكتب الماء والكهرباء، لجمع الأموال الضرورية حتى يتسنى البدء في وضع العدادات، لكي يتسنى لزوجاتنا وأطفالنا أخيراً أن يغتسلوا بالماء الجاري، جمع قدراً جيداً من المال، أعطانا وصولات وعدة أوراق بخاتم الوزارة ثم لم نره بعد ذلك أبداً، كان قصيراً وسميناً بعينين مليئتين بالمكر، يبتسم ويضحك بجلجلة، ويتكلم بلكنة مراكشية، كان لديه في شاحنته الصغيرة نماذج عدادات، سقطنا كلنا في الفخ، وقام بالملهاة نفسها في القرية المجاورة، لم يقبض عليه أبداً، والأدهى: خيل لي أنني رأيته في أخبار التلفزة المغربية يرافق وزيراً للأشغال العمومية. كان هو بالفعل، ضحكته، وجهه المسحوق، ذبابته الصغيرة تحت الذقن، كانت سمة مميزة، سمة ابن شيطان. لست شريراً، لكن يحدث أحياناً أن أحلم بأحلام انتقام. أنا شغوف بالعدالة، لا أحتمل أن يتم الزوغان عنها، أرى هذا الدنيء، اللص بين يدي الدرك، ثم وقد أطلق سراحه وسط القرية حيث تجمّع الناس مشترطين أن يعيد لهم نقودهم، أراه وقد جُرِّد من كل ممتلكاته، ثم رُمي في السجن إلى الأبد. أنا كنت سأضعه في قفص تحت الشمس، بدون ماء، بدون طعام، الوقت الكافي ليعرف ما هي الحاجة، المعاناة اليومية، غياب الماء، لكن الله سيعاقبه. الحاصل، أتمنى ذلك! آه: العدالة الإلهية! أحياناً تكون رائعة، تأتي في وقتها لتبين أن من يختلس القليل الذي يمتلكه الفقراء، يعاقبه الله، ويعرضه أمام أنظار ضحاياه، لكن هذا لا يحدث دائماً، يظهر أنه يتوجب الصبر، فالله يختبرنا، تعلم الانتظار، وعدم الرد على الشر بالشر، لكن يجب

الإيمان بعدالته، إنه هو من ينتقم للمهان، لليتيم المسروق المتحايل عليه، إن التقيتُ هذا المراكشي السفيه، الفرحان، إن كان بإمكاني سحقه بسيارتي القديمة، هل سأقوم بذلك؟ أعترف بأن فكرة رؤيته يعاني تراودني، لكن، لقد جننت، من الأفضل ترك الأوغاد بين يدي الله.

في المصنع يفرح الرفاق الفرنسيون والبرتغاليون لوصولهم إلى هذا اليوم، حيث سيكون بإمكانهم استغلال أوقاتهم للقيام برحلات، وإنجاز ترميمات في البيت، والبستنة، والقراءة أو العمل لحسابهم الخاص. كان يعدّون خططاً، ينظمون حياتهم كـ«متقاعدين شباب» كما كان يقول مارسيل: في الستين من العمر، نحن بالكاد بلغنا الثلثين من عمرنا، لذا ينبغي ألا ندفن أنفسنا! ينبغي العيش! وصل مارسيل إلى فرنسا بعد الحرب مباشرة، كان في العقد الأول من عمره. مقبل على الحياة والشراب، كان مهاب الجانب كرئيس مصنع، ينحدر من أصول بولونية يهودية وملحدة، كان متعاطفاً مع القضية الفلسطينية، ولا يفهم لماذا لا تقوم الدول العربية بأي شيء من أجل إخوانهم في الأراضي المحتلة. محمد كان يشتكي من المصير الذي آل إليه الفلسطينيون، ويقول إنه لا يفهم شيئاً في السياسة. اقترح مارسيل نفسه أن يعلمه السياسة، لكنه بقي على مبعدة منها، فالخوف من المخزن يعمل حتى على بعد آلاف الكيلومترات من القرية، كان ذلك في فرنسا، حين سمع للمرة الأولى عن حقوق الإنسان. وحين سمع أيضاً أن رجالاً يموتون تحت التعذيب، أو

يتعفنون في السجن بلا محاكمة. كان مارسيل يخبره عن ذلك، يقول له: بلدك رائع، لكنه بين أيدي أناس ليسوا في المستوى، كُوُّنَت الشرطة المغربية من طرف نظيرتها الفرنسية التي علمتها كيف تعذب، لكن النظام المغربي يقوم على الخوف، حتى أنت، فأنت خائف. أنا أفهمك، إنك خائف من أن تعتقل بعد عودتك، الأمر نفسه في الجزائر وتونس، كل من يحتجّ على سياسة القمع، له بطاقة معلومات وينتظرونه على الحدود، لهذا لا يتحرك المهاجرون كثيراً، أنت، أنت تصمت وأعرف أن ما يجري في بلدك يؤلمك.

تذكّر محمد الكُتّاب وضاع في ذكريات بعيدة. مرحلة كان كل شيء فيها سهلاً، لم نكن نعرف حتى أن هناك طرقاً، وعمارات، وفوانيس لإنارة أزقّة لا يسكنها أحد، كان للعالم مساحة القرية، وكان يجد صعوبة في تخيل أمكنة أخرى، يترك مسقط الرأس دائماً طعماً مُراً في الحلق، وحلق محمد جاف، عار، بدون أي شيء، وهذا اللاشيء تبعه حتى الأراضي الفرنسية، يعوّل على هذا اللاشيء كثيراً، لم يكن له خيار، لم يكن بإمكانه مبادلته بلا شيء آخر، ربما أكثر ألواناً، وأكثر غنى، كان يكتفي به بصبر وإذعان. انتهى به الأمر إلى أنه لم يعد يطرح السؤال. ما كانت تفعله الشرطة في الكوميساريات، لم يكن بإمكانه تخيله، كان ذلك يحدث بعيداً، يحدث في المدينة، وكانت قريته على بعد سنوات ضوئية من المدينة.

هل أراد أن يعيش كفرنسي؟ كان يرى رفاقه في المصنع ولا يغبطهم على مصيرهم، لكل واحد حياته، لكل واحد طريقته في

التصرف، لم يكن ينتقدهم، ولكنه لم يكن يفهم طريقتهم في معاملة آبائهم وأمهاتهم وأطفالهم. لم يعد لروح العائلة كما يتصوره وجود في فرنسا. كان هذا التفاوت يصدمه. لم يكن يفهم كيف أن البنات يدخّنّ ويشربن أمام آبائهن، ويخرجن في الليل برفقة أصدقاء ذكور. لم يكن يفهم تلك الإعلانات التي تصور في لوحات كبيرة نساء نصف عاريات لبيع عطر أو سيارة، كان يخاف، بالخصوص، على عائلته الخاصة. يتكلم عن خوفه مع أصدقائه. يتنهَّد ويرفع يديه إلى السماء باستسلام. ما العمل؟

دعا مارسيل ذات أحد للأكل في البيت. كان ذلك اليوم يوم عيد. قال له محمد: تعال مع زوجتك، لكن بدون قناني الشراب! قبل مارسيل أن يتخلى عن الخمر، وأتخم نفسه بالمأكولات التي حضرتها زوجة محمد، كان يحب أن يقول له: الوقت هو نحن، وليس ميناء الساعة. لا، إنك أنت من يصنع الوقت، تغلق عينيك فتصير في الماضي، تغلقها مرة أخرى فتستشرف المستقبل، حين تقرر فتحهما، لا شيء ملغز، فأنت في الحاضر، الحاضر نحيف جداً مثل لفافة تبغ، أتدرك ما أريد قوله؟

قبل التجمع العائلي، وبالضبط قبل الدروس، كان بعضهم يسير لرؤية نساء ساكنات في مقطورات، ينتظرون دورهم، وهم يغرقون في خجلهم. رفض محمد دائماً هذا النوع من الترويح عن النفس. كان يخاف الأمراض، ثم ماذا يمكن أن يقول الناس، الجيران، الرفاق آنذاك. كان هناك ضباب، ضرب من ستار سقط فوق تلك العشية. يوم أحد اتخذ فيه الضجر شكل

غريزة كان يراها بهيمية. لقد جر من طرف صديق نسي اسمه، كان يقول له: حذار، إذا لم تفرغ خصيتيك، من حين لحين، فذلك يصعد إلى الدماغ وستصير أعمى. وقال له مرة أخرى: حتى ديننا سمح لنا بأن نفرغ خصيتينا، ينبغي فقط إعداد ورقة وتمزيقها بعد ذلك، تعرف، ما نسمّيه زواج المتعة، تتزوج وقت الزنا، ثم تطلق، وها أنت في وئام مع الله والأخلاق. كان محمد يضحك في خفوت، ويتبع الصديق المهذار. في يوم الأحد هذا، لم يكن هناك تقريباً من صف أمام شقة سوزي الصغيرة. كانت بدينة شيئاً ما، وفيها كل ما هو مغرق في السوقية، حتى يمكننا القول إنها تجهد نفسها لمفاقمة مظهرها، كما لو أن هذا جزء من شخصيتها ومن دعارتها. لكنها كانت ودودة، إنسانية، حتى إنك تنسى خديها المطليين بإفراط بالمساحيق، وعطرها الذي يقطع النفس وصوتها الأجش بسبب التدخين والكحول. كانت عيناها زائغتين كل الوقت، ونظرتها تبقى غائمة، كانت هنا، وفي مكان آخر. كانت تعرف أن لعملها طبيعة خاصة، وأنها تقوم به، وهي تنتظر التقاعد، تقاعد قبل الأوان، لأنها لم تعد قادرة على فتح رجليها واعتصار خصيتي المهاجرين. كانت تحبهم جيداً. بل تقول إنها كانت تتأثر بخجلهم وانعدام المهارة لديهم. شرح له الصديق ما يتوجب فعله بدقة: تدخل، تبتسم لها، إنها تحب الرجال الذين يبتسمون. تبدأ بأن تضع ورقة مئة فرنك في دريق موضوع على طاولة عند رأس السرير في هذا الدريق حلوى الينسون، وأخرى بالنعناع. وهي التي أفضلها، تأخذ واحدة، إنها لجعل النفس

طيباً، وفي الوقت نفسه تأخذ شيئاً من بلاستيك مرهف، واقياً ذكرياً إنجليزياً. نسمّيه هكذا لأنه يحمي من الأمراض ومن الأمطار السيئة. ثم تستلقي على السرير وتتركها تتعهدك. إنها اختصاصية، سريعة، ناجحة. لها تقنيات رائعة لإفراغ الخصيتين في بضع دقائق. سترى. ستحس بنفسك أفضل حالاً. مبدئياً، إن لم تعرف كيفية استعمال شيء البلاستيك، فستتكفّل هي بذلك، لا تشغل بالك، وبعد ذلك ستشكر صديقك.

نزل الضباب مجدداً. نكس محمد رأسه، وحاول أن يطرد هذه الصورة التي تعود إلى زمن قديم جداً، ورغم ذلك فإنه يتذكر أن سوزي عاملته على نحو لطيف، لكنه لم يعد لرؤيتها.

كان يربط هذه الذكرى بأخرى سيئة، عاشها كإهانة. حين بلغ الخمسين، قال له الدكتور غارسيا طبيب المصنع، بفظاظة: محمد أتصحو دائماً في الليل للتبول؟ إذن، لديك مشاكل في البروستاتة، يتوجب فحص ذلك.

في يوم الزيارة قال له الطبيب أن يخلع سرواله، وأن يخلع أيضاً تبانه، وأن يركع ساجداً كأنه يصلي. لم يتحرك، وقال: لا، بحركة رأسه. نفد صبر الطبيب، وتظاهر بأنه فهمه، ثم قال له: أعرف، ليس هذا سهلاً، الخجل، الحشمة، أعرف، لكن يجب أن أفحصك، لا يمكنني أن أفعل ذلك عن بعد، ثق بي، يتطلب الأمر ثلاثين ثانية ثم ينتهي. ولن تتألم، كان بود محمد أن يقول له إن المسألة ليست مسألة ألم جسدي، وإنه لم يُظهر أبداً مؤخرته لأي شخص. ولكن وفي لحظة، أغلق عينيه، وأنزل بسرعة سرواله ثم تبانه وسجد. طلب منه الطبيب أن

يسجد أكثر. قام محمد بمجهود وبحنق في القلب. قام الطبيب بلمس شرجي. جيد، بروستاتك لها حجم طبيعي بالنسبة لسنك، لكن يجب أن تنتبه لها، انتبه يا محمد، سأراك بعد سنة من الآن.

بخروجه من هناك، سار وهو ينظر إلى لأرض، كان يؤاخذ نفسه ويأسف لأنه لم يطلب من الدكتور غارسيا أن يخدره من أجل هذا الفحص، ولم يحبذ طلبه أن يسجد كما يفعل في الصلاة، لم يتحمل أن يتم إيلاج إصبع في شرجه. لم يكلم أحداً في هذا، ولم يهتم أبداً ببروستاته.

8

الزمن. كان الزمن عدوّه. إنه هو من وضعه لأول مرة عارياً أمام نفسه وأمام ذويه. كان يشبّهه بحبل طويل لا يثبت دائماً، حبل ينسلّ، يفقد عقده، ويتدلى برخاوة من رأس عكاز. كفن ليس بياضه إلا وهماً. لا يمكن للزمن أن يكون طويلا جداً، قاسياً، بدون نور ولا فرح. إنّه خط يصعد وينزل، هواء مليء بالغبار. للزمن عدة وجوه، كما فعل مع زميله إبراهيم. لم يكن يعرف القيام بأعمال الترميق أو البستنة. أما بالنسبة للسفر، فالسفر الوحيد الذي قام به طوال حياته، ما عدا حَجِّه إلى مكة، كان السفر الذي يأخذه من فرنسا حتى قريته بجنوب المغرب. كان يقول، إنه يجتاز الألف وثمانمائة واثنين وثمانين كيلومتراً في أقل من ثمانية وأربعين ساعة. يقضم الزمن بدون إفراط في السرعة. كان يريد أن يكون أقوى منه. أشد سرعة. كان ذلك إنجازاً، تحدياً، كان يضع في رأسه أنه سيهزمه، أنه سيُحدث ثقباً فيه. ينظر إلى وجهه ويضحك مليّاً. هو الذي فقد عادة الضحك. كان يحب تعب ما بعد السفر، تعب ثقيل وجميل. تعب الواجب وقد أنجزه على أتمّ وجه. تعب هزيمة

الزمن. لأنه، وما إن يصل إلى البلد، لا يعود يكترث لهذا العنصر. يحس بنفسه في أمان، في أمان شامل، لا شيء يزعجه، ولا أحد يعارضه. ثم ينام طوال النهار والليل. وبسبب مشاكل البروستاتة كان نومه الطويل يكسر لمرتين أو ثلاث مرّات في الليل. وهو ينهض ليتبوَّل كان يفكر من جديد في الدكتور غارسيا والإهانة التي تعرض لها. لم يفهم لماذا يدخل إصبعه في شرجه لكي يعرف أخبار بروستاته. كان يقول لنفسه: لماذا لا يستعمل راديو الكشف، نرى كل شيء. ينبغي أن يكون غارسيا هذا فاجراً. العار! كان يجدر نسيان ما وقع. تذكّر خالد ابن قريبه الذي ذهب ذات يوم مع سائح كندي، تقول الإشاعة إنه بنت تقريباً، وإنه يختبئ، لأن الناس يعتبرون ذلك مثل نقيصة، كان بعض الصبيان يسخرون منه، بل يقال إن بعضهم استغله وراء الجبل الصغير، اختفى خالد المسكين، ولم تعد تصل أبداً أيّ أخبار عنه. يقال إنه يعيش مع رجل. إنه الرعب التام. فضّل والده الادعاء أنه مريض، وأنه يعالج في أمريكا. ولأنه كان يبعث إليهم بحوالات فقد كان ذلك يضعهم في ورطة. ذات يوم صاح والده ، ليس لي ابن، خالد ليس ابني، إنه لقيط، أردت أن أتبناه، لكن الإسلام على حق، التبني محرم، وقد عوقبت على ما فعلت.

كل عودة كانت حدثاً في البلد، ما إن يصل حتى ينسى أنه يكره الأعمال المزدحمة، كان يحب هذا الجو، تلك الفرحة في وجوه الأطفال الذين ينتظرون الهدايا، يحب اللقاء مع الشيوخ،

مع أعضاء عائلة كبيرة، ينظرون إليه بعيون ممتلئة بالحسد، العائلة كانت هي القبيلة، من الخارج كانت تظهر مثل صمغ قوي مكتسح. لم تكن أبواب الدور تغلق، وفي كل الأحوال، إن أغلقت الأبواب بالأقفال، كان أناس القبيلة يدخلون من النوافذ، أو من الأسطح. القبيلة لا تحترم الحدود. بيتها كل بيت في القرية. ليس فقط أن كل الناس يعرفون بعضهم بعضاً، بل أيضاً يتدخل بعضهم في شؤون البعض الآخر. إنها عائلة كبيرة منتظمة بطريقة عتيقة، تحكمها التقاليد والشعوذة. لم يكن محمد يملك من أمره شيئاً. كان ذلك مسجَّلاً في دمه، إننا لا نفلت من الأصول، بل إنه لم يكن منزعجاً من تصرف بعض أفراد القبيلة، حتى حين بنى ابن أخيه داراً في أرض يملكها محمد، لم يعترض. كانت هذه هي العائلة، احتجّ ولده الأكبر، أسكته بأن ذكَّره بأن العائلة مقدسة، وأننا لا نتخاصم من أجل بقعة أرض.. رد الابن: يجب أن تقاتل حين يؤخذ منك شيء تملكه، ابن عم، ابن خال، أو حتى أخ. إن أخذت مني أرضي، فسأفعل كل شيء من أجل أن أستردها. إنني لا أفهم هذا النوع من التضامن من طرف واحد. أتعتقد أنه كان سيتركك تستولي على ممتلكاته؟ أشك، كان محمد ضعيفاً أمام القبيلة. كان يعرف أن احتجاجاته لن تؤدي إلى نتيجة. إننا لا نصارع قروناً من العادات. كان أطفاله بعيدين عن كل هذا. ثم لا أحد سيفهم لماذا محمد ليس سعيداً. القبيلة هي القبيلة. نناقشها، لا ننتقدها. لسنا أوروبيين. العائلة مقدسة، الأمر هكذا، وهذا كل ما في الأمر. توقف للحظة، وبدأ يفكر

بصوت مرتفع، لكن الأوروبيين يحبون عائلاتهم. يحتفلون برأس السنة، يجتمعون، يتحادثون، يغنّون. ذات مرة دُعيت لسهرة رأس سنة عند مارسيل. لكنهم يشربون كثيراً، وأنا لا أحب هذا. الكل يشرب. الأطفال يشربون حتى الثمالة مع آبائهم. لم أقل شيئاً، لكنني خفت أن يصير صغاري، في يوم ما، مثل أطفال مارسيل. لهم عاداتهم ولنا عاداتنا. لسنا مضطرين للقيام، نحن وهم، بالأشياء نفسها. فرنسا هي مكان عملي. المصنع، رائحة البلاستيك، البترول والصباغة التي أتكفل بها في سلسلة المصنع. كان أبي يشم عرق وغبار الأرض المحروثة. أنا أشم المواد الكيميائية، وأشمّ الحديد، لأنها رائحة خانقة، كنت قد اعتدت على هذه الرائحة. لم يعد أبنائي يأتون ليلتصقوا بي لكي يشمّوها. كانوا يقبلونني ويقولون لي: سلام با، هيه! سلام با! أنا كنت أقبل يدي أبي وأمي، وكنت ألحّ عليهما ليرضيا عني، ويغفرا لي في حال أخطأت في حقهما. سلام! نعم، سلام أيها الولد.

حين كان أولاده صغاراً، كانوا يأتون معه إلى البلد. كانوا يستمتعون، يلعبون مع البهائم، يرمون معي دجاجة فاسدة للقطط ليمسكوها. يصنعون لعباً بما توفّر. وكان لهم خيال شيطاني، كانوا جد مضطربين، منزعجين، مدللين، وبدون احتراس. كان الجيران يقولون: إنهم لم يربوا تربية حسنة. لا يحترمون شيئاً، ولا أحداً، إنها فرنسا التي صيّرتهم هكذا. أو ربّما أن والديهم غلبا على أمرهما؟ لكن الآباء لم يكونوا يقبلون

أن تنتقد أولادهم، فيمسحون هذا الحماس والحركة الزائدين عن الحد في العطلة. أما الأطفال فإنهم لم يكونوا يتصورون أنهم ينتمون حقاً إلى هذه الجماعة ذات الجماعة المتملكة. كانوا يتدبرون أمرهم كيفما اتفق. يأكلون عند البعض أو عند آخرين. كل الدور كانت مفتوحة في وجوههم. ولا أحد كان يجد هذا غير طبيعي. كانوا يحبون العَمّ العجوز الذي كان يقول إنه بلغ مئة سنة، بفضل العسل الخالص. كانوا يصدقونه، فيعدّون قطع خبز مطلية بالعسل طوال النهار. قال أحدهم لوالده إن ذلك يكاد يكون لذيذاً مثل النوتيلا. بعد مضيّ أسبوع، كانوا يضجرون، يصيرون عدوانيين، يطلبون الذهاب إلى شواطئ أگادير. يأخذهم محمد إلى هناك، كان يجلس وينتظرهم في مقهى، وفي الليل يعيدهم إلى البلد. كان مرهقاً، لكنه لا يستطيع رفض أي شيء يطلبونه. في أحد الأيام، قالت له فطومة أخته الكبرى: لكن اضربهم، لم يتربوا تربية حسنة، هؤلاء الصغار، حين يأتون إلى هنا، يشوّشون أطفالنا، يعلمونهم أشياء تصدمني، الأمر هكذا.. فرنسيون صغار. يا إلهي، لقد أنجب أخي الصغير لنا نصارى صغاراً. أجانب...

ثم هناك الصغير نبيل الذي يجري في كل الاتجاهات، يسقط غالباً، يتأذى لكنه لا يبكي، تناديه أمه فطومة تارة بملاك، وتارة أخرى ببركة.

وكانت تقول لمن حولها: إنه طفل مثل الأطفال الآخرين. لقد بعثه الله إلينا كإشارة على الفرج والرفعة القادمة. يجب تركه يفعل ما يشاء. إنه لا يعرف ما هو الشر. بالنسبة له، كل الناس

طيبون. سار بعد أن بلغ سنتين من العمر، وتكلم في سن ثلاث سنوات، لا نعرف ما كان يقوله لكننا كنا نخمن ما كان يريد قوله. كان يقوم بإشارات، بحركات مضبوطة ليعبِّر. قالت لي المولدة إنني أفرطت في أكل الثوم، لذا ولد نبيل مختلفاً عن الآخرين. ذات مرة في مستشفى مراكش، حاول طبيب شاب أن يشرح لي، قال لي أشياء لم أفهمها: إنك قد بلغت من السن ما يمنعك من الولادة، كان عليك ألا تلدي هذا الطفل، والآن يتوجب التعايش مع تخلفه، إنه ليس شريراً، بل عاطفي جداً. لكن الأمر سيكون متعباً. شرح لي وهو يخط رسماً، شيئاً شبيهاً بعود بثلاثة وعشرين صفاً من الأوراق يميناً وشمالاً، ثم شدد على العود الواحد والعشرين، وهو يقول لي، أترين هنا، هناك ثلاث ورقات، إنها ورقة زائدة، إنه هذا الشيء الصغير الزائد الذي خلق المشكل. لقد احتفظت بالرسم، أنتظر مجيء ولدي الأكبر من الجامعة ليشرح لي.

نبيل نسيج وحده. بعد الكُتّاب حيث لم يتعلم شيئاً، قبلت أن أعطيه لأخي، لقد سجّله في الحالة المدنية كما لو أنه ابنه. ساعده المقدم، رئيس الجماعة القروية في هذا، ثم أخذه معه إلى فرنسا. إنه يذهب إلى مدرسة حيث أعد قسم للأطفال على شاكلته. إنه يحب المدرسة. تعلم الموسيقى، ويتدرب على المسرح، ويمارس عدة أنواع من الرياضة. إن احتفظت به معي، كان سيصير مريضاً أكثر فأكثر، وأنا سأصير مجنونة، من حسن الحظ أن محمد أخذه معه، إنه اليوم شاب كبير، يلبس بشياكة، غريب وذكي، حين يعود في العطلة، يحمل معه هدايا

لي، ويعينني على ترتيب البيت. إنه صلب وعاطفي، خصوصاً أنه ملاك، بركة من الله. في المرة الأخيرة، ألحّ عليّ لكي أرافقه إلى فرنسا، قلت له: ليس لي جواز سفر ولا تأشيرة ولا نقود. لم يفهم. أخذ الدفتر وخربش بعض الأشياء، وأعطاها لي قائلاً: خذ الباسبوورو، والتأييرة وأنا معك. جعلني أبكي، حضنته بقوة، وأحسست بدموعه تسيل على عنقي.

الوقت. كان لمحمد، وهو شاب، مشاكل مع الوقت. لم يكن يعرف ما يمثّل، ولم يكن يعرف موضعه إزاء أحداث كبيرة في السنة، وكان يجد صعوبة في العيش بحسب الساعة. ولم تكن لديه ساعة. كان اليوم مقسّماً بحسب الصلوات الخمس. وكانت الساعة هي الشمس وظلها. غير أنه كان يحدث أن يحس بكل ثقله. وأن يتخيل الوقت كحمل ثقيل فوق ظهره. رجل عجوز يسير بصعوبة، لكي يقتل الوقت. كان يضرب برجله الحمل الثقيل المتوَهَّم، كان يحرث الأرض ببطء خاص. حين يذهب إلى المسجد، كان يكرر الصلاة نفسها عدة مرات. للبهائم علاقة جيدة مع الوقت، أو على الأقل مع طلوع الشمس. أما هو فكان يرتكز على الصلوات الخمس اليومية، ويحاول أن يملأ الفراغ بينها. كان يقوم بما يقوم به الآخرون، ولا يعتبر الوقت شيئاً آخر سوى ابتكار لأناس مستعجلين، لم يكن يفهم لماذا يقال: الوقت هو المال. بهذه الطريقة في الحساب، كان يعتبر نفسه غنياً. ذات يوم اقترح عليه ابن خالته، الذي يعرج منذ حادثة شغل في بلجيكا، أن يفتح حانوتاً في

جانب طريق مراكش لبيع الوقت. كيف هذا؟ هذا بسيط سأبيع للسياح الوقت، إنه موجود عندنا بوفرة. أعرفهم جيداً، خالطتهم في أوروبا. سأقول لهم: تعالوا عندنا، ستجدون أمامكم وقتاً كثيراً، ليس هناك ما ينجز، ستستريحون، ولن تنظروا أبداً إلى الساعة، وفي نهاية اليوم، ستتساءلون أين هو الوقت. هكذا، إنها شطارة، إذا ساعدتني، يمكن أن نجمع ثروة. قال له محمد: الوقت ريح، هو الغبار في الجو، هو الشمس، هو القمر، النجوم وجحا، أتعرف ذاك الذي يتصنع الغباء، ويضحكنا حين كنا صغاراً. ضحك لمدة، ثم نسي ابن خالته ومشاريعه الفنطازية. في مرة، اقترح عليه أن يبيعا ذكريات بالمفتاح في اليد. ما هذه القصة؟ هذا بسيط، بالنسبة له كل شيء بسيط. نجلب السياح حتى القرية. ندعوهم لشرب الشاي. نقضي معهم وقتاً قصيراً، ننادي الحاج الذي بلغ مئة سنة من العمر الذي سيقرأ لهم خطوط الكف. أنا سأترجم، ثم يعطون قليلاً من النقود مقابل قطعة من جلد شاة ستذكرهم بهذه الزيارة. هذه هي الذكرى. وبقدر ما تكون القطعة كبيرة، بقدر ما تكون الذكرى مهمة. لست لطيفاً، إنك تتشكك دائماً. معك لا يمكن أن نقوم بمشاريع. لدي فكرة أخرى، هنا، لا يمكنك ألا تكون موافقا. اسمع، رأيت في التلفزة أغنياء، فرنساويين، وسبانيوليين يأتون ليعيشوا مع الفلاحين الفقراء. هذا يجعلهم يعيشون شيئاً مختلفاً عن شققهم، وسياراتهم، وكل ما ليس عندنا. لذا سنبيع البلد، سيكون قرية سياحية لأغنياء تعبوا من كونهم أغنياء. سيأتي هؤلاء عندنا ليقوموا بتجربة اللاشيء.

اللاشيء عندنا، لا ماء، لا كهرباء، لا شيء في لا شيء. لذا سيعيشون كما كان يعيش جدودهم الأقدمون. سيسيرون إلى الآبار، يستعملون الشموع، يأكلون ما يتوفّر، ولن يكون لهم الحق في الاحتجاج، وسيؤدون الثمن من أجل هذا. أعداد المتقاعدين الذين يأتون إلى المغرب، لكي يستقروا فيه في ازدياد، أتفهم. زوج يعني متقاعدَيْن، أجرتَيْن شهريتين، أجرة تجعلك تعيش مثل وزير، أفضل من وزير. لذا سنبحث عن زبائننا بين هؤلاء المتقاعدين الفرحين. أليست هذه فكرة جيدة، أينبغي الذهاب إلى مراكش، أو إلى أگادير لكي تنشر الجرائد هذا الإعلان..؟ حين كنت في مونت، عرفت بلجيكيين، ذهبوا بعد حصولهم على التقاعد إلى الهند يتّبعون معلماً في الهراء. أتعرف، إنه من ذاك النوع من الأشخاص النحيفين الذين يسدلون لحية طويلة، ويقرفصون فوق منسوج من القصب غير مريح. والأوروبيون تحت رجله يتشربون لحظات الصمت هاته، كما لو أنه رسول يباركهم. أتفهم، إنهم مستعدون لازدراد أي شيء. أنا سأدعو الحاج الذي بلغ المئة، سألبسه گندورة جميلة من الحرير الأبيض، سأخضّب لحيته الطويلة بالحناء. سأعطيه عمامة، وأقدمه كمعلم للصبر والصمت، وستسير الأمور. سيأتون بالمئات ليشمّوا فقط عطره، ويأخذوا العبرة من سكونه. سنقول لهم إن الحاج في تواصل مع من ينتظرنا كلنا، العالم الآخر. غير أنه يعرف كيف يحضّرنا للدخول إلى هذا العالم الآخر. ستقرأ مع هذا بعض الآيات من القرآن. تحرق بخوراً، أعشاباً تشتريها من إبراهيم في ساحة

جامع الفناء بمراكش. والحيلة ستنطلي عليهم! لا، هذا لا يثير اهتمامك. إنك تتظاهر باللامبالاة، وا أسفاه. سأذهب لبيع فكرتي لواحد من اللصوص في مراكش. واحد على شاكلة من باع مسجد الحي لسائحة أمريكية. لقد جعلها تعتقد بأنه رياض. وجعلها تزوره بين الصلوات، بلعت الطعم وأعطته تسبيقاً جيداً بالدولار بواسطة شيك بنكي. لا، أعطته رزمة من الأوراق النقدية الخضراء. وحين عادت بعد ستة أشهر، أحست بالخجل، لأنها خُدعت بهذه الحيلة، حتى إنها انفجرت ضحكاً وغضباً. غادرت المدينة قائلة: إنهم أقوياء وماكرون هؤلاء المغاربة! انتشرت القصة في كل المدينة، مما جعل المحتال يقع في حزن شديد، هو الذي كانت له مشاريع أخرى ريانة مثل مشروع المسجد. لقد باع عدة مرات بقعة الأرض نفسها. كما أنه وضع في مركز المدينة عدّاداً لتسجيل مدة توقف السيارات، وكان يؤمّن له قليلاً من النقود، بل إنه نجح ذات يوم في بيع قفطان زوجته مدّعياً أنه قطعة فريدة من القرن التاسع عشر، وكان ينجح دائماً في إيجاد حمام يسقط في براثن احتياله.

9

حين جاء المقدم عند محمد في 5 سبتمبر 1962 لابساً لباساً أبيض، وتقاسيم وجهه صارمة ومتكلفة، أعطاه جواز سفره، وهو يقول له إن ثمانية وأربعين ساعة تفصله عن الذهاب الكبير. وجد محمد صعوبة في تبين كم من الوقت بقي أمامه ليغادر القرية. شربوا الشاي، وأكلوا بعض الفطائر بالعسل، ثم تبادلوا التحايا كما لو أنه أهم يوم في حياته. أظهر محمد لزوجته الوثيقة الثمينة: بهذا، سأجعل منك ملكة، ومن ابننا أميراً. وحين سألته عن موعد السفر غمغم: سيكون ذلك في الصباح الباكر. في تلك الليلة لم ينم أحد، حضرت النساء فطائر بالعسل، الكفتة، التين، التمر. قضى محمد وآخرون جزءاً كبيراً من الليلة في الحمام. كانوا يتهيأون كما لو أنهم ذاهبون إلى مكة، أو إلى حفل زواجهم. بعد صلاة الفجر غادروا القرية مشياً على الأقدام، وركبوا شاحنة صغيرة ومتهالكة نقلتهم إلى مراكش حيث أخذوا الستيام، حافلة شركة النقل الوطنية.

كانوا حوالى عشرين رجلاً أتى بعضهم من قرى مجاورة. مَرَّ الوقت بسرعة، حتى أن محمد لم يعد يفكر في الوقت أبداً.

كان قد صار خفيفاً، رشيقاً، وغير مبال بالوقت رغم أن خوفاً صغيراً من المجهول كان يتراءى في الأفق. في الواقع، لم يعد يعرف أبداً أين يتخذ مكانه. كانت المجموعة تُسيِّر من طرف أحد القدامى الذين تعودوا القيام بهذا السفر. كان يقول لهم: تذكروا جيداً هذا أينما ذهبتم، ومهما كان العمل الذي ستقومون به، هناك شيء مؤكد، لن يتخلى المغرب أبداً عنكم، سيكون دائماً معكم، ومن المستحيل نسيانه، المغرب يهاجر معكم، يتبعكم، يقودكم ويحميكم، سيلتصق بجلودكم، ينبغي ألا تفشلوا حين تفتقدون البلد، لا تترددوا في الحديث عن ذلك مع المغاربة. سترون، فرنسا بلد جيد جداً. أنا، أنا أقول للاّ فرنسا. أعرف، إنها ليست أميرة، ولا هي امرأة من محتد شريف، لكنها تعطينا العمل، ونحن سعداء بذلك، ستحسّون بالبرد، لكن في البلد، هناك أيضاً برد في الشتاء، ليس هناك أصدقاء، سنكون دائماً مجتمعين، لأننا فقط ضيوف. أناس استدعوا ليقوموا بأشياء قاسية، لم يعودوا هم يقومون بها، لكننا نحن أقوياء، في صحة جيدة، وسنظهر لهم بأن الأمازيغي لا يخاف البرد ولا الثلج ولا التعب. ليس هناك وقت للتعب، سترون. سيحكي لكم القدامى عن أشياء، لكن لا تستمعوا إليهم، قوموا بالعمل، ولا شيء غير العمل. للاّ فرنسا تؤدي ثمناً جيداً، لكن لا تعتقدوا بأنكم في أيام الأحد ستدعون للأكل عند الناس، هذا لن يحدث أبداً، لأن، هناك، كل واحد في بيته. الباب مغلق، والنوافذ أيضاً. الأمور هكذا، وليس هناك ما يقال! إنها طريقتهم في العيش، إنهم لا يأتون أبداً لإزعاجكم،

أو الخبط على أبوابكم طالبين الملح والزيت. لا، هذا لا يحدث، كل واحد في بيته والجميع في حالة هدوء. الضيافة ليست شائعة هناك، أما نحن، فالضيافة جزء لا يتجزأ من طريقة عيشنا، إنها ميزتنا، ويحدث أحياناً أن نبالغ فيها، دورنا مفتوحة للأجانب، هذا طبيعي، إنها أخلاقنا وديننا، وبسبب هذا نجد صعوبة في فهم لماذا لا يتصرف الآخرون مثلنا. سترون، حين ستصلون، ستحسون بالضياع، لا شيء يذكّركم بالبلد، لا شيء، لا الجو، ولا الوجوه، ولا المناظر، لا شيء. من الأحسن التهيؤ للدخول في عالم مجهول كلياً. الأمر شبيه بحلم لم نعد فيه أبداً نحن. هناك سيكون عندكم الطبيب، الأدوية المجانية، وليس كما في البلد، حيث لا يوجد حتى ممرّض يمرّ من حين لآخر. حين أقول مجاني، هذا يعني أننا نؤدي كل شهر، الكل يؤدي، كما نقول عندنا: اليد في اليد، ويد الله فوق جميع الأيدي. هكذا فهم الفرنسيون التضامن. لو لم أكن أخاف أن أخلق لنفسي مشاكل، سأقول بأنهم تقريباً مسلمون، الحاصل، اعلموا، لكي يمر كل شيء على أحسن ما يرام، لا تحشروا أنفسكم في السياسة، ابقوا على الحياد، ولا تتدخلوا أبداً في عراك، الاحترام، الاحترام، إنهم لا يميزون بين التونسيين، المغاربة، والجزائريين، بالنسبة لهم كلنا عرب. إنهم لا يميزون بين العربي والأمازيغي. إنهم لا يعرفون شيئاً من كل هذا، لذا كونوا حذرين. لن تكون فرنسا أبداً بلدكم، هذا مؤكد. فرنسا هي فرنسا، بلد غني، لكنه في حاجة إلينا، كما نحن في حاجة إليه.

بوصولهم إلى طنجة في الصباح، أحس محمد بالخجل لأنه اكتشف البحر متأخراً جداً في حياته، كان البحر أزرق زرقة صافية، وكان هادئاً، يتلقى أولى أشعة الشمس التي تجعل منه مرآة حية. كانت المحطة بين الشاطئ والميناء. وكان هناك أطفال يعبرون السكة وهم يقومون بحركات مخلة بالحياء تجاه القاطرة. كان محمد في الوقت نفسه سعيداً. البحر، إنه لم يسمع حتى الكلام عنه. كان يعرف أن آگادير على شاطئ البحر، لكنه لم يذهب أبداً إلى هناك. كان له بعض الوقت للذهاب للتمشي على الرمل، وحتى لتذوق ماء البحر. كان قد بلغ العشرين من العمر، ولم يلمس أبداً البحر بإصبعه. راح يتصرف كطفل، يلعب بالرمل، يتخبط في الماء، يضعه في شعره، وفي وجهه. كان يوماً جيداً. اشترى زجاجة كوكا من بائع متنقل، شربها ثم ملأها بماء البحر، وأخذها معه. كان يعرف أنه لا يستطيع شرب ماء البحر، لكن بالنسبة له كانت تلك ذكرى، وهذه ستذكّره بهذا اليوم المميز الذي اكتشف فيه البحر، كل البحر. كان رفاقه يسخرون منه. وكان يضحك. هم لم يتفهموا تصرّفاته، خصوصاً أن بعضهم أتى من الدار البيضاء وبوزنيقة، وهي مدينة صغيرة تحاذي المحيط الأطلسي مباشرة.
كان العبور في الباخرة طويلاً ومضطرباً لأن ريح الشرق هبّت في منتصف النهار. في ميناء الجزيرة الخضراء اندهش لعدد رجال الشرطة، كانوا متشككين، عنيفين، يتحركون بين المسافرين مرفوقين بكلاب توضع كمّامات على خطومها، كانوا يعمدون لفتح بعض الحقائب، يفرغونها بقسوة، وحين لا يجدون فيها

شيئاً، يتركون محتوياتها مرمية على الأرض، ثم ينصرفون ضاحكين وهم يقولون أشياء تتردد فيها كثيراً كلمة مورو. بدت له إسبانيا، بالكاد، أكثر تطوراً من المغرب. كان السفر في القطار بلا نهاية، تارة كانت القاطرة تسير بسرعة، وتارة أخرى كانت تبطئ وتتوقف لأن هناك أشغالاً. حاول أن ينام لكنه لم يتمكن من ذلك، كان يسير في الممر ويرى الحقول والأشجار والدور تمر، كان يفكر مجدداً في ما قاله العامل الذي سبقهم إلى الهجرة، يجب أن يحضّر نفسه للاستقرار في بلدٍ، سيكون فيه، وفي كل الأحوال، وحيداً. لم يكن يستطيع أن يتخيل أنه لن يعثر على القبيلة، العائلة، وهذا البلد صار جزءاً من جسده ومن كل كيانه، كان يحس بأن شيئاً ما ينفصل عن ذاته، وبقدر ما يتقدم القطار، بقدر ما تصير القرية التي هجرها صغيرة حتى تختفي كلية. حين كان يفكر في ذويه، تصير صورهم غائمة، لم يكن يعرف أنه في طور الانتقال من زمن لآخر، من حياة لأخرى، كان يغيّر القرن والبلد والعادات. كان يقول إن رأسه أصغر جداً من أن يتلقى كل هذا. كان يروح ويغدو مثل حيوان في قفص، كمٌّ كبيرٌ من الأشياء الجديدة، كمٌّ كبيرٌ من التحولات. حين وقف القطار وسط الحقول، كان يُحِسُّ بنفسه ضائعاً، وبدأ يستعيد حياته، حياة صغيرة ومضبوطة بإتقان، لا شيء مميّزاً يحدث فيها، هكذا رأى والده وجدّه يعيشان، ومن الطبيعي جداً أن يواصل الحياة نفسها. لم يكن الأول الذي هاجر من القبيلة. لقد أحس بقلق آسر حين تبيَّن أنه صار من العمال المغاربة في الخارج. ع.م.خ، ومع الوقت تحول إلى

م.م.خ، مغربي مقيم بالخارج. أين الفرق؟ مقيم تبدو أكثر نبلاً. لكن النظرة التي توجه لك لن تتغير.

لقد احتفظ منذ وصوله إلى فرنسا بصور ما زالت، إلى الآن، دقيقة، جدران رمادية تكاد تكون سوداء، وجوه منغلقة، حشود تسير بسرعة ولا تتكلم فيما بينها، رائحة غريبة للغبار، وللعطر السيئ، وأناس ملونون يتسكعون في الأزقة وفي أروقة الميترو، أغنياء، وآخرون يظهر أنهم أقل غنى، لكن كلهم يركبون سيارات جديدة تقريباً، لوحات كبيرة تظهر نساء لا يلبسن سوى القليل من الثياب، وفي أخريات حيوانات تقدم غسالات الثياب، لم يفهم ماذا تفعل الكلاب والقطط هنا. كان عليه أن يدوس روثاً ليتبين أن الكلاب حاضرة في كل مكان بهذا البلد. لماذا كل هذا الحضور؟ في البلد، الكلب بالضرورة دخيل، حيوان يجب طرده بالحجر، إن مرَّ كلب أو قطة من أمامه حين يكون يصلي يضطر لإعادة الصلاة، إن الحيوانات تحمل جراثيم ضارة للمسلمين، ويجب تجنبها، ثم ليس هناك كلاب في الجنة. كانت هذه هي للّا فرنسا، وعد غامض. كان الوقت قد غطى هذه الساكنة التي لم يستطع استكناه أسرارها، إلى أين يسير كل هؤلاء الرجال، وكل أولئك النساء؟ لماذا هم مستعجلون؟ أين هم أطفالهم... لماذا هذا الكَمّ من الكلاب، لماذا لا يكلمون بعضهم بعضاً في الحافلة والمترو؟ إنهم يتجاهلون بعضهم بعضاً، يقرأون الكتب أو الصحف على الخصوص، ولا يتحادثون. كان يلاحظ ويتساءل هل ينظرون

إليه، لا، لماذا ينتبهون له؟ ما الذي يميزه عن الآخرين؟ رأى انعكاس وجهه في زجاج المترو وابتسم ابتسامة خفيفة. في محطة سان-لازار صعدت امرأة ضخمة، امرأة افريقية تلبس قماشاً مبرقشاً، كانت تدفع مركبة صغيرة فيها رضيع بصحة جيدة يضحك، كان سعيداً، وأمه أيضاً لم تنزعج، أخرجت الطفل من المركبة الصغيرة وألقمته ثديها، كانت في بلدها، نظر إليها الركاب بذهول، ثدي كبير يغطي تقريباً رأس الرضيع، ثدي ما زال منتصباً ومتماسكاً. كان الطفل يرضع، وأمه تكلمه كما لو أنها كانت وسط ساحة بقريتها. حسدها محمد قليلاً على حريتها، مرتاحة وضاحكة. كانت تلك المرأة رائعة. بدأ محمد يبتسم، نظرت إليه وقالت له: مرحباً بك في فرنسا، كيف عرفت أنه قدم لتوه؟ يُرى ذلك في طريقة تصرفه، في القلق الذي يفصح عنه وجهه. أعانها على إخراج المركبة الصغيرة من المقطورة، ورافقها حتى باب الخروج، شكرته المرأة بضربة خفيفة على ظهره، كانت قوية. كان محمد مشوَّشاً وضائعاً على الخصوص، لأنه لم يكن يتوفر على أي فكرة عن المكان الذي يوجد فيه. خرج ليتمشى قليلاً في المدينة. شكل من أشكال التعرف على البلد. كان ينبغي أخذ الخط الذي يسير نحو جينيفيلي. نظر إلى خريطة خطوط المترو فأحس بنفسه أكثر ضياعاً. قال له شاب بشعر طويل: إلى أين تريد الذهاب؟ قدم له ورقة كتب فيها عنوان «حي العبور» ظن أن الشارع يسمى كذلك. كان اليوم يوم عمل، لم يكن هناك أحد في الحي، رجل مسن يسير وهو يتكئ على عكاز، رجل ذو مزاج سيّئ:

ماذا جئت تفعل في هذا البلد؟ انظر، وقعت لي حادثة شغل، ولا فلس. عد إلى بلدك، على الأقل ستكون هناك بين ذويك، وعائلتك، هنا لا عائلة، لا زوجة، لا مسجد، لا شيء، العمل، العمل ثم الحادثة، فأل سيّئ: قال لنفسه. واصل الآخر طريقه، وهو يحمل على كتفه حقيبته الكبيرة. دلّه فرنسي على غرفته، كانت صغيرة جداً، واطئة جداً، حزينة جداً، وجدرانها رهيفة حتى إنه يسمع الجيران وهم يتنفسون، قال له: الغرفة 38، ها هو المفتاح، حذار، لا نساء، لا حوادث، اشتر قفلاً ضد السرقة، المراحيض هناك، والحمام أيضاً، هيا، محمد، مرحباً بك. عرف متأخراً أنه يسمّي كل المهاجرين محمد.

10

عليه الآن أن ينهض، يرتب سجادة الصلاة، يسد تلك الثلمة في الجدار، يوقف ساعة الحائط تلك التي صارت مجنونة، ويعلن لزوجته أنه وابتداء من الغد سيبدأ لانتريت، نهاية العمل، تحول في عاداته، حياة جديدة، كيف سيقول لها كل هذا؟ يجب إعدادها، العثور على نبرة ملائمة، كلمات بسيطة. إن كنت أنا سعيداً، فستكون هي سعيدة، إن بدأت أتأسف على مصيري، فستكون تعيسة جداً. كان ذلك خبراً كبيراً، لم يعتد الحديث معها في ما يتعلق بعمله، وهو يحدّث نفسه بهذا كان يتساءل: لكن ماذا سأفعل بحياة جديدة، كنت أحب كثيراً حياتي القديمة، لقد تعودت عليها كثيراً، لم يكن لي أي اعتراض عليها. كنت أنهض وأسير للمعمل، إنه العمل، لا شيء غير العمل، ورغم ذلك كنت أحبّ كثيراً هذه الحركات، هذا الذهاب المبكر، كميلتي في حقيبتي، أي شيء تشبه هذه الـ«حياة جديدة»؟ هل ستكون بالألوان، هل ستكون مرحة؟ أم ستكون كئيبة وبدون فرح؟ لم أطلب أي شيء، ليس لي جرأة طلب أي شيء، عند اللزوم يمكنني أن أقوم بجهد لكي أستفسر

عن الطريق، أين توجد العمودية من فضلكم، شكرا جزيلا، اسمحوا لي على الإزعاج. . .

تبعاً لوثائقه كان قد بلغ السن المطلوبة. تذكّر للحظة أنه كبَّر عمره سنتين بسبب حادثة إدارية كان المقدم يمتلك أسرارها، أيفاوض الشركة؟ يربح سنتين من العمل في المصنع؟ يعمل قليلاً، يعرض حتى أن يعمل بأجر أقل ولا يبقى، خصوصاً، بلا شيء ، بدون عمل، بدون عادات، لماذا يُمنع رجل في صحة جيدة من العمل؟ من المستحيل تزوير أوراقه الآن، بل إنه سيخاطر بأن يلاحق قضائياً لأنه كذب، تخلى عن فكرته، لم يكن من نوع الغشاشين. ولا كلمة لزوجته وأطفاله.

كالمعتاد، نهض مبكراً، توضأ ثم أدى الصلاة، لبس وزرته الزرقاء، حضّر لنفسه شاياً شربه واقفاً كأنه تأخر، أخذ كميلته التي حضرتها زوجته وغادر الدار قائلاً «إلى المساء». كانت الساعة السابعة صباحا، وهو يسير إلى المحطة تعثر مرتين أو ثلاثاً. كان قلق صغير يعتمل في داخله. كان عليه في هذا اليوم أن ينام الضحى، يستحم، يلبس مثلما يفعل في العيد ويبدأ حياته الجديدة. كان شيء ما بداخله يقاوم هذا، أحس بأن قدره خرج من الخط الذي رُسم منذ زمن بعيد، خط مستقيم، واضح، شريف. أخذ القطار، تعرّف على وجوه مألوفة وزّع بضع ابتسامات ثم خرج في محطة الوصول المعتادة. جلس على دكّة وأخذ الوقت للتفكير. ما أنا بصدد فعله الآن؟ يجب أن أستفيق، انتهى العمل، لم أعد صالحاً للعمل. لم يرَ قط عاملاً يعود للعمل بينما له حظ الذهاب للتقاعد، إنني لا أبحث

عن ربح المال، يمكنني أن أكون هناك، أن أكون مفيداً في حالة خرج أحد العمال أو مرض، سأكون بديل الغائبين، مَنْ يؤمن استمرارية الشغل، أجلس في مكتب وأنتظر أن يتم اللجوء إلى قدراتي. لم يحدث هذا أبداً، سيعنّفنني النقابيون، سينعتونني بالمجنون والمشوَّش، لا، لا أريد مشكلة مع النقابات، إنهم لا يحبذون الخروج عن الصف.

على مشارف مدخل المعمل، اقترب منه مارسيل، المندوب النقابي، وقال إنه يغبطه على ذهابه إلى التقاعد وعلى امتلاكه لكل هذا الوقت له وحده. ابتسم محمد، كان بودّه أن يقترح عليه أن يشتغل بدلاً عنه، لكنه أجاب بأنه جاء من أجل مسائل إدارية وأنه سعيد لأنه سيتمكن من الاستفادة من القرب الدائم من أولاده الذين لم يرهم تقريباً وهم يكبرون، أجهد نفسه في قول تفاهات ثم شكر مارسيل على لطفه. توقف قرب البوابة الكبيرة، ترك الآخرون يمرون، بقي لبعض الوقت يحدِّق في الأرضية ثم قفل راجعاً، نظر للمرة الأخيرة إلى البوابة الكبيرة التي لم يبق أحد أمامها، كان كل شيء مقفراً وكان حزيناً جداً حتى أن ذاكرته عادت به إلى يوم مجيئه إلى فرنسا. كان يجد صعوبة في السير، يحسّ بجسده يفشل، ثم استعاد زمام نفسه، وقرّر الدخول إلى أول مقهى وطلب كأس حليب كبيرة، كان على الطاولة منفضة مليئة بأعقاب السجائر، أبعدها عنه، ثم بدأ بتخطيط مشاريع.

قال لنفسه إنه وفي مرحلة أولى سيذهب لبضعة شهور إلى المغرب لكنه لن يفعل مثل حسن الذي استغل لانتريت لكي

يتزوج زوجة ثانية، جميلة وصغيرة طبعاً، ثم لم يرجع أبداً إلى فرنسا، لقد وعدها بأن يأخذها إلى «بلد العجائب» لكن حسن لم يمتلك شجاعة السير بقراراته إلى حدّها الأقصى. حبلت زوجته الصغيرة، وإزاء قبيلته التي أدانته، كان عليه أن يرحل للعيش في المدينة. لقد خطّ علامة على ماضيه كمهاجر وبدأ حياة جديدة في ظروف صعبة.

بالنسبة لمحمد كان هجرُ العائلة وبدءُ حياة جديدة في البلد ليس إلا وحياً من الشيطان، فالشيطان يحب أن يفرّق ويدمّر العائلات، لا يفعلون هذا في عائلته، لا، لا تُهجر أبداً أم الأولاد. لم يكن ينظر أبداً إلى النساء الأخريات. كان يسبل عينيه حين يحدث أن يتحدث عن زوجته، لم يكن يسمّيها، لم يكن يطريها، لا يقوم بحركات حنونة تجاهها على الأقل أمام الناس. كان ينظر بالكاد إلى بناته، وكان لا يقول لهن أبداً «كم أنت جميلة، يا أميرتي» مثل تلك الشخصية في مسلسل لبناني رآه في التلفزة.

هل سيقضي كل أيامه في مقهى أريسكي القبائلي؟ ماذا يفعل هناك؟ يلعب الورق أم الدومينو؟ لم يكن يحب أي نوع من أنواع اللعب. أيشرب البيرة؟ أبداً، يشاهد التلفزة، يتابع نتائج السباقات، يحلم بالبنات شبه العاريات واللواتي يملأن المسلسلات الأمريكية؟ هذا لا يهمّه، في اللحظة التي غادر فيها المقهى صاح به قادر، صديق قديم لكنه صديقي: يظهر أنك بلغت الـ«لانتريت»، ها أنت أخيراً حر. أرأيت، يعطونك أجرتك ولا تعمل أبداً. هذا رائع، إليس كذلك؟ هذه هي

فرنسا. إنها تعترف بالجميل، هذا رائع، ليس الأمر كما في البلد: تمرض، تهلك، تذهب إلى المستشفى، ينبغي أن تشتري أدويتك وحتى الخيط الذي تخيط به جلدك المفتوح بعد العملية. إن كنت محظوظاً فستنجو وإلا فستبقى. هنا، أنت ترى، تعمل، طيب، إننا لا نربح ملايين لكننا نربح جيداً، ما يؤمّن لنا العيش، ثم حين تتعب يعطونك لانتريت وتعيش، يمكنك دائماً أن تذهب إلى المستشفى، إنه مجّاني ثم إنه جيّد. الرائع في هذا البلد أنه على الرغم من أن هناك، كما تعرف، العنصرية، لكن حين تضع رجلك في المستشفى، فإنهم يعاملونك مثل الجميع، لا عنصرية هنا، يمكنني أن أشهد على هذا، زد على ذلك حين تذهب للكشف الصحي ماذا تلاحظ: هناك من العرب والأفارقة أكثر مما هناك من الفرنسيين، أرأيت ذلك، هذا ليس سيئاً، لا عنصرية، ثم إنك لا تؤدي ثمن الكشف. هذه هي فرنسا ينبغي إنصاف هذا البلد حتى ولو لم يكن هناك غير لوبن. . ينبغي الاحتفال بهذا، خذ سأؤدي عنك ثمن مشروب غازي. أنا بفضل الله ومكة، لم أعد أقرَب الكحول، لكن السجائر تلك، إنها أكثر صعوبة، لم أستطع التخلص منها، ماذا أفعل إذن؟ تستقر في البلد، تتزوّج من بنت جميلة وتتخذها زوجة ثانية. لك الحق في ذلك، لاحِظْ إنك تعمل ما تريد. أتعرف أن لعمّار أكثر من ستين سنة وأنجب من جديد. تزوج صبيّة وولدت له طفلاً. كل شيء شرعي، لكن أولاده لم يعودوا أبداً يريدون رؤيته أو التحدث معه. هذا صعب، لكن الخطأ خطأه، كان عليه أن يقوم بهذا بشكل سري

وخصوصاً ألا يجعلها تحبل. طيب، أتركك إلى فرصة قادمة. آه، نسيت أن أقول لك، لقد فتحت بقالة صغيرة غير بعيد من هنا، أبيع كل شيء، تعالَ لرؤيتي ذات يوم.

تذكّر الكيفية التي انتقمت بها رحمة من زوجها الذي هجرها لكي يبدأ حياة جديدة مع سمراء من أگادير. لقد نزلت فجأة برفقة أبنائها الخمسة، وقدمت نفسها على أنها الأخت الصغرى، استقرت في شقة العروسين ووضعت الزوجة الشابة أمام الأمر الواقع. خافت الصغيرة وعادت عند أبويها اللذين طلبا من الزوج الطلاق والتعويض. بالطبع كان قد أغفل حين طلب البنت للزواج أن يقول إنه متزوج. أحدثت القضيّة صخباً كبيراً. أُجبر الزوج متعدد الزوجات على قبول كل شروط رحمة. ما إن عادت إلى فرنسا، وبعد أن ضربته من دون أن تترك أثراً، طلبت الطلاق بسبب تعدد الزوجات. حُكم عليه بأن يدفع ثلاثة أرباع تقاعده لزوجته وأطفاله. رحمة كانت امرأة قادرة وقوية، مصممة، كان يقال بأنها كانت تضرب زوجها في الوقت الذي كانا فيه جيران محمد ولا أحد يصدق ذلك، في هذه الأوساط الرجل هو من يضرب، في العادة، المرأة، هذا ما يقال، ثم إن عمّار زوجها، ليس من طينة الرجال الذين يتشكون أو يقرون بأنهم يؤدبون من طرف زوجاتهم. كانت تأخذ أجرته وتعطيه من حين لحين ما يذهب به إلى المقهى. كان أصدقاؤه يحدسون ما به لكنهم لا يفاتحونه في الأمر، كانوا يروه تعيساً، مهدوداً، منطفئاً. كانت هي التي تتكفّل بكل شيء، هو يعود من المعمل، يأكل ولا يحقّ له الذهاب لتبديد نقود العائلة في

البارات. حين كان يتجرأ على الاحتجاج، كانت تغلق عليه في الغرفة وتضربه «بقاموس لاروس الكبير» للأطفال. كان عليها أن تشتري لاروساً جديداً لأن الآخر صار في وضعية مزرية. كانت أكثر قوة جسدياً، وهي امرأة بدائية، لا شيء كان يوقفها ولا شيء كان يخيفها. كانت تسير، على يقين من حقها، وهي تكنس كل شيء من حولها. كان قد فكر في الطلاق، لكنه إجراءاته معقدة ثم إن الطلاق ليس أمراً معتاداً في قبيلته، خاصة أن رحمة هي بنت ابنة خالته، وما كان لأحد أن يصدقه إن اعترف بأنها تضربه، لذا كان يصمت ويتحمل من دون أن يحتج. وككل الضعفاء اختار الهرب عوض المواجهة. لقد انتقم باختفائه بعد أن ترك نقوداً ظاهرة فوق طاولة المطبخ. لم يفكر في أنها ستلحق به وتفسد عليه مشروعه.

كان محمد يبتسم وهو يفكر في الرجل الذي يُضرب، وكان يسير ويداه متصلبتان في جيبه. كان يسير على طول الطريق بعينين مسبلتين إلى الأرض كما لو أنه كان تمريناً أمر به طبيب. كان يفكر في أولاده وأحس بأنه فقدهم. كان أكثر من إحساس، إنه يقين، يقين قوي. كان لديه انطباع بأنه رُمي في الفراغ. أُلقي به للفراغ مثل كيس مليء بالحصى، كيس مليء بأشياء لم تعد تصلح لشيء، كيس كان فيه فأر ميت منذ مدة طويلة، ورائحة كريهة تصدر منه. قال لنفسه: أنا الكيس والفأر، أنا الأحجار والحديد الصدئ، أنا الحيوان الذي لا يحبه أحد. يرى نفسه يُدَحْرَجُ في مطرح للقمامة يُلقى به مع أشياء

مكسورة، أحجار، خيوط حديدية، غبار، وفجأة النسيان، لم يعد يوجد، لا أحد يفكر فيه، ولا يطلب حضوره. انتهى الأمر، إنه في نهاية طريق طويل ولا أحد من أولاده جاء ليأخذه من هذا المطرح، استفاق الفأر وجاء يحك رِجْل محمد، انتفض وَجِلاً، كان الأمر يتعلق بعشب احتكّ به.

11

كان لابنه مراد موقع جيد في عمله بمتجر كبير، تزوج ماريا وهي إسبانية وُلدت مثله في فرنسا لكن أبويها عادا للعيش في إشبيلية. كان رياضياً، وكان بإمكانه أن يصير لاعب كرة قدم لكنه مصاب بنفخة قلبية. درس المحاسبة وواصل ممارسة عدة رياضات، كانت رغبته الكبرى تتمثل في مغادرة هذا الضاحية، والسكن في باريس وقطع كل الأواصر التي تربطه بسكان الضاحية. كان يحب أبويه جداً، لكنه كان يفضل عليهما حريته، هذا الاستقلال الذي حصل عليه بالعمل حتى حين كان طالباً. كان يقبِّل يد والده وجبين أمه دلالة الاحترام لا الخضوع. ما إن حصل على أجرته الأولى حتى قرر أن يمنح جزءاً صغيراً من راتبه لوالديه. شكره والده وهو يقول له إنه، وبواسطة هذه النقود، سيساهم في بناء الدار، أية دار؟ لم يجبه محمد. قام بحركة غامضة ثم ذهب.

منذ زواجه لم يعد مراد يمضي عطله في البلد، كان يفضل دار صهريه في البخاري. كان يتساءل لماذا ينجح الأسبان أفضل من المغاربة. عثرت زوجته على جواب صدمه: بسبب الدين،

بسبب الإسلام! ثارت ثائرته وقام برد فعل كأنه إمام، هو الذي لا يطبق أي شعيرة إسلامية. حاولت ماريا أن تشرح موقفها بأن استحضرت تاريخ الفرنكوية التي استعملت الكنيسة لكي تثبت سلطتها. كان مراد مجروحاً، لا يمكن للإسلام أن يكون مصدر تأخر. أوضحت ماريا: لا دين يشجع على تطور الحداثة، وفي الواقع كان يفكر في والده الذي كان الإسلام بالنسبة له أكثر من دين، بل إنه أخلاق، ثقافة، وهوية.

ماذا سيكون عليه والده بدون إسلام؟ رجل ضائع، كان اللجوء إلى الدين يهدئه، إنه يحب شعائره، يجد فيها راحته، سكينته. ذات يوم أخذه صهره لزيارة قصور وحدائق الحمراء في غرناطة، افتتن بجمال المعمار العربي، إنهم أجدادك مَنْ بنوا هذه القصور والأماكن البديعة. كان ذلك منذ زمن طويل، طويل جداً، أية حضارة جميلة هاته، حضارة لم يبق منها شيء، ومن حسن الحظ أننا هنا للحفاظ على كنوزها.

كان مراد مُحْرَجاً. لكنه لم يكن قادراً على معارضة صهره. كيف يجيب عن هذا؟ ماذا يقول؟

تجاوزت جميلة اعتراض أبويها وتزوجت من إيطالي. لم يعد محمد يراها، كان دخول رجل غير مسلم إلى العائلة يؤلمه. وتعامل مع المسألة كأن هذه البنت لم تعد ابنته. في البداية حاول أن يعيدها إلى جادة الصواب لكن جميلة كانت تحبّ وترفض كل مناقشة. وكانت تدخل في حالات غضب لم يعتدها. إنها حياتي، وليست حياتك، لن تمنعني من الحياة لأننا

مسلمون. ثم ما هو الدين الذي يبيح للرجل زواج النصرانية واليهودية ويرفض ذلك للبنات؟ ما هو؟ تعتقد بأنني سأكون أكثر سعادة مع رجل من البلد. واحد من هؤلاء البلديين المقمّلين الذي سيحبسني بينما سيذهب هو للسكر حتى الثمل في البارات؟ لا شكراً بابا، استيقظ، حياتي أنا أقررها. أنت يمكنك أن تعطي مباركتك إن أردت، وإن لم تكن موافقاً فلا أملك شيئاً إزاء هذه الحماقة! أنت مريض. يجب أن تعالج! نكّس رأسه وذهب والدموع في عينيه. كانت زوجته تهدِّئه قائلة إن أمورها لن تسير كما تتوقع وإنها ستعود بسرعة إلى الدار. كان يكرر بشيء من البلاهة: ماذا يعني كونها تحب؟ ما هذه الحادثة التي تسقط على رأسي كدار متهالكة تسحق ظهري؟ هل كنا، أنا وأنت، نتحاب؟ لا أعرف ما يعنيه هذا. تعرفين كم أجد صعوبة في الحديث عن هذه الأشياء، الحب، إننا لا نناقشه، نرى هذا في السينما لا في الحياة. أن تحبّ يعني راحت، سقطت، الأمر شبيه بفتيحة التي سقطت فجأة مع رجل. إنها لم تضع مجدداً رجلها أبداً في القرية. كان ذلك الرجل مدينياً، شخصاً غنياً، لقد ذهبت معه، وهي تعرف أنه متزوج وأب لخمسة أطفال. لا، إن سارت ابنتي وراء هذا الغريب، فإنها لن تعود أبداً عندنا، قضي الأمر. هو أو نحن. هو أو والدها. لم أعد أريد أن أراها أبداً، إنها لم تعد ابنتي، سأحذفها من كناش الحالة المدنية. قضي الأمر، بنت دللتها، ولم أرفض لها شيئاً، تجلب لي إلى الدار نصرانياً لا يذهب أبداً عند الحلاق، وتطلب مني مباركتي لهما. هذا مستحيل. ولا نقاش فيه. سأفعل مثل

الوردي، هو أيضاً رفض أن تتزوج ابنته رجلاً غير مسلم، كان على حق، بعد سنة عادت مجدداً إلى الدار. لم تجر الأمور كما يجب. نحن مختلفان جداً. حين ذكّرته زوجته بأن مراد تزوج من نصرانية، غضب وصاح: هو رجل، والرجل يقود العائلة، وستنتهي هذه النصرانية بالدخول في ديننا. لم نر أبداً نصرانياً يدخل بصدق للإسلام، حتى يتسنى له الزواج من مسلمة. إنهم يتظاهرون، يغيّرون أسماءهم، يقولون الشهادة ثم لا يفكرون إلا قليلاً في ما فعلوه. لا، إن الرجل هو من يقرر لا المرأة.

غادرت جميلة الدار ولم يعد أحد في الدار ينطق باسمها أبداً أمام محمد، كانت جُرْحاً.

الولدان الآخران غادرا من تلقاء نفسيهما الثانوية ويشتغلان في بروفانس، عرف محمد ذلك يوم العيد الكبير. لا أحد من أولاده كان حاضراً باستثناء الصغيرة رقية ونبيل. إنها المرة الأولى التي تنبّه فيها أنهم يتدبرون حياتهم في مكان آخر من دون أن يقول أحد له ذلك. أحد أولاده كان ميكانيكياً في ورشة بدرو، والتحق الآخر ببقالة عمه في كومبيان. كانت له عقلية تجارية وهو أيضاً يبعث من حين لحين حوالة لأمه، صارت الشقة أكبر منه بكثير: زوجته ونبيل ورقية، وكانت الأخيرة، وهي الأصغر، تجدّ في الثانوية وكانت تنذر نفسها لتكون طبيبة بيطرية. تفتتت العائلة. كان يعزي نفسه بأن يقول لنفسه: هذه هي الحياة، نلد أطفالاً، ندلّلهم ثم ذات يوم يرحلون، وبالكاد يتذكروننا، لكن ما العمل؟ لو كنا في القرية لكانوا كلهم هناك.

تحت نظري. هنا نحن في بلد لا يرحم. يجب الكفاح طول الوقت للعيش، للتنفس، للنوم في سلام. كان يحلم بأن يجمع الكل وأن يقيم حفلاً، لكنه كان على يقين بأن أولاده لن يحضروا لذا قرر أن يسقط مريضاً بمرض خطير، هذا هو الحل، سيأتون ليودعوه في سرير المستشفى، لكنه كان يتطير، إننا لا نمزح مع المرض والموت ولا مع إرادة الله. كل عاطفته من الآن وصاعداً توجّهت لرقية التي لم تكن لها الرغبة ولا عندها الوقت للتخفيف عنه. كانت تغلق عليها باب غرفتها وتراجع دروسها. كان يقول لنفسه: ستحصل هي على الأقل على البكالوريا وتقوم بدراسات عليا. ستكون طبيبة بيطريّة وستأتي لتعينني في البلد. لم يكن يستطيع أن يتخيل، أو بالأحرى يقبل، أن حياة أولاده تفلت منه. لم ينسَ أبداً صرخة غضب جميلة: أنت مريض، يجب أن تعالج! أن تحب أولادك، أن تريد أن تكون محبوباً من طرفهم، أن تكون قريباً منهم وتريد لهم الخير. أهذا هو أن تكون مريضاً. أهذا ما يجب معالجته؟ حسناً. سأذهب لأرى طبيب مجانين وسأقول له: هكذا إذن، أنا مريض لأنني أحب أولادي. أي دواء عليّ تناوله لكي أعالج؟ هل عليّ أن أشرب دواءً مضاداً للحب العائلي. أو أتناول حبوباً تنسيني أن لي خمسة أطفال من بينهم بنت ذهبت مع غريب عن ثقافاتنا، عن ديننا وعن بلدنا؟ أيّ تربية هذه! أنا فعلت كل شيء لأربيهم، لا أعرف من أين جاءت هذه الفظاظة ضد الأبوين. لا أعتقد أنهم في المدرسة الفرنسية يعلمونهم كره والديهم لا، ليس في المدرسة، أعتقد أن ذلك مصدره التلفزة،

كل تلك الأفلام الأمريكية أو الفرنسية حيث لم تعد للآباء أي سلطة.. أن أُعالَج! هذا هو إذن. أنا مريض، مريض جداً، وأحبّ هذا المرض! ذات يوم قالت لي أمهم: ينبغي أن يمتلك الأب السلطة وإلا فلا شيء سيسير. ما هي قصة السلطة هاته؟ أن تخيف، أن تكون قاسياً مثل أولئك الذين يضربون أولادهم ثم يفقدونهم لأنهم يهربون، يسقطون في تناول المخدرات وينتهون في السجن أو في مستودع الأموات في المستشفى البلدي؟ أنا كنت أعتقد أن السلطة أمر طبيعي. لم أكن في حاجة لأن أسعى لأمتلكها ولا لأن أكرر الشيء نفسه عدة مرات، لكن حين لا يستمع لك أطفال، وحين يتصرفون على هواهم. فليس هناك ما يمكن القيام به إذن. ليس هناك إلا انتظار نهاية ذلك وأنت تتمنى أن يكونوا متعقّلين شيئاً ما لكي لا يرتكبوا حماقات. لم يحرق أولادي أبداً سيارة أو يحطموا دراجة نارية. حين تتحرك القلاقل في الحي يكونون هم أول من يخافون مما يقوم به أصدقاؤهم. أرادوا دائماً أن ينجحوا ولم يغوهم أبداً العنف أو الفوضى.

كان نبيل هو من جاء للتخفيف عنه، أخذ يده، وضعها في يده وقبّلها. نظر أحدهما إلى الآخر ثم خرجا لأخذ مثلجات في مقهى.

بعد الظهر، وبدون أن ينبس بكلمة، ورأسه مثقل بالحزن، ضم محمد نبيل بين يديه بقوة، كانت الدموع تترقرق في عينيه. انتظر رجوع رقية من الثانوية. قبّلها ثم حضّر حقيبته. أخذ بعض

المؤن وقال لزوجته: سأذهب إلى البلد لأستريح بعض الشيء. التحقي بي مع نبيل ورقية في العطلة، هذا كل شيء. سأترك لك نقوداً وإن احتجت إلى أي شيء اطلبي ذلك من سلام. كان سيستقل القطار فسيارته مثلها مثل غيرها من السيّارات أحرقها الشباب. كان ذلك في شهر أكتوبر حين ثار فتيان بعد أن صُعق اثنان من أصدقائهما بالكهرباء في مخدع للتوتر العالي. لم ينتفض الـ 78 لكن صبياناً أرادوا أن يفعلوا مثل الآخرين وأحرقوا سيارات مركونة في الحي كان حريقاً مجانياً، هذا بالضبط، فقط لإثارة انتباه السكان، لقول شيء ما. لم يكن محمد سعيداً. ما الذي يريدون قوله بحرقهم لسيارتي الرونو التي اشتريتها بأقساط وبثمن جيد بما أنني أنتمي إلى الشركة التي تنتجها؟ ماذا فعلت لهؤلاء الصبية الذين أسيئت تربيتهم. من أنا بالنسبة لهم لكي يحرمونني من سيارتي، أنا الذي من معسكرهم، وأنحدر من أصولهم؟ لقد نسوا أنهم لم يحصلوا على تربية جيدة، الأمر هكذا، هؤلاء الأطفال، الذين ولدوا في أوضاع سيئة، وأسيئت تربيتهم، وهم سيئون في القسم، لا يطيعون آباؤهم، لم يجدوا أفضل مما يعملونه غير إحراق سيارتي القديمة والتي تفيدني كثيراً خصوصاً في الصيف. رمتني شركة التأمين للتسكّع. قال لي الشخص ومن دون أن ينظر إليّ: المسألة لا تخصنا إنها مخاطر لا نؤمّن عليها، تقلبات الجو، الكوارث الطبيعية، الفوضى في الطريق العام، كل هذا لا نغطّيه، نحن نؤمّن الحوادث لا ثورات الأوغاد. وفي كل الأحوال إن حصل ذلك فإن أحد أولادك هو من أحرقها. أنا ابني لن يذهب لحرق

سيارتي، أتفهمون، بالتالي لا أستطيع شيئاً بالنسبة لكم، انسوا سيارتكم، اشتروا واحدة أخرى، لكنني لو كنت في مكانكم لانتظرت أن تهدأ الأمور. إنهم يحبون السيارات الجديدة، إنها تستثيرهم، الوداع سيدي، آسف. حقاً.

غادر محمد الوكالة مهدوداً. كان يتساءل لماذا لا تعوّض الدولة على المساكين ضحايا الفوضى، نظر من حوله. لم تعد هناك أي سيارة مركونة. لقد اتخذ الناس احتياطات. لم يكن يستطيع أن يتصور أن فتياناً كان يلتقيهم كل يوم سيحرقون في يوم ما المدينة لأنهم ضجروا، لأنهم أرادوا أن يخلقوا منغِّصات لفرنسا، لكنني أنا لست فرنسا، أنا أب بسيط لعائلة وجدت نفسها في الشارع، بدون سيارتها التي تستعملها لتذهب إلى البلد، هذا كل شيء. لم أعنّف أبداً هؤلاء الصبيان الذين يتسكعون في الحي، وأولادي لا يخالطونهم. أنا متأكد من هذا. لقد دخلوا سوق العمل مبكراً وهجروا الـ 78.

ما الذي يجب فعله الآن؟ نحتجّ لدى مفوضيّة الشرطة؟ لا، إنهم لن يستمعوا إلي. إنهم غاضبون جداً. لا ينبغي أبداً الحديث مع شرطي غاضب. ثم إنني أكره الدخول إلى الكوميسارية. سأستقل القطار، ثم الباخرة ثم الحافلة، ثم التاكسي، سيدوم ذلك طويلاً، ينبغي أن أحضر أمتعتي، من الأحسن السفر بأحمال خفيفة، ثم هناك حل إنتظار يوم الخميس لأخذ الحافلة التي تربط بين جينيفيلي وآگادير. نعم، لكن في السنة الماضية نام السائق، سقط عشرون قتيلاً ومثلهم من الجرحى. لا ثقة، إنهم مغاربة، أرادوا أن يربحوا سريعاً وكثيراً.

لذا يوظّفون سائقين يعطونهم أجرة هزيلة، إلا إذا أسرعوا ووصلوا قبل الآخرين فإنهم يعطونهم علاوة صغيرة. لقد حصل سائق الحادثة على علاوة كبيرة: مات على الفور. المسكين، على الحكومة أن تفعل شيئاً ضد وكالات الحافلات هاته، لكن الرشوة في كل مكان، إنهم يحصلون على التراخيص، على تجاوز الحمل المسموح به، على تجاوز السرعة القانونية، كل ذلك مقابل المال. وا أسفاه، سآخذ القطار ثم أنام، لست متيقناً من ذلك، على أي حال سأحاول النوم.

12

لأول مرة في حياته كمهاجر لم يخط الطريق كما كان يقول، كان قد حصل على تذكرة القطار، لم يكن مستعجلاً. إن التقاعد هو الوقت الذي ينبغي ملؤه بمشاريع. قضى الليل كله وهو يرتب خططاً، لكي يرى أخيراً عائلته الصغيرة مجتمعة من حوله. راودته خاطرة لعن للاّ فرنسا التي أخذت منه أولاده، لكنه توقف منذ مدة عن التفكير في سيارته الضائعة، تمالك نفسه وابتهل إلى الله لكي يُرجِع الأشياء إلى مجراها العادي. بالنسبة له المجرى العادي هو ألا يغادر الأولاد الدار، ولو تزوجوا، ثم ينبغي أن يزوروها دائماً، وأن يقوموا بمشاريع معاً ولم لا؟ كالذهاب إلى مكة مثلاً. هذه الفكرة المكلفة، لم تكن تبرح تفكيره، كان يتخيلهم وهم يطوفون حول الكعبة، ويصلّون. هذا جنون؟ لا، أبداً. إنه واجب على المسلم. لكنه ليس في بلاد الإسلام. ينبغي أن يهجر هذه الأفكار، ويفكر في مشاريع يسهل تحقيقها. أيفتح متجر بقالة؟ لا، لم تعد هذه التجارة مربحة. لماذا لا يقترح عليهم القيام بجولة في المغرب، رحلة من الشمال إلى الجنوب لرؤية المغرب كله، القيام بما

تقوم به العائلات الفرنسية التي تزور البلد. هم يتوقفون في كل مكان، يقيمون عند السكان، ويأكلون في المطاعم الصغيرة وهم فرحون؟ سيشتري سيارة فسيحة، وإلى الأمام أيتها المغامرة. وبما أن أولاده يشتغلون كلهم ولا يأخذون عطلهم في الفترة نفسها، فسيقوم بهذه الرحلة لمرتين أو ثلاث مرات. اكتشاف البلد، التعرف على السكان، رؤية جماله، تنوعه، تبادل الحديث، النوم في العراء، ارتجال ألعاب، تمضية وقت طيب معاً. لماذا لم أقم بهذا حين كان الأولاد صغاراً؟ لم أفكر أبداً في الأمر، كنت أتبع الشعيرة نفسها كل سنة، من 15 يوليوز إلى 28 غشت، أكرر الحركات نفسها. كان هذا قدرنا، وينبغي قبوله وعدم طرح أسئلة. لم أعرف أي مهاجر قام بجولة في المغرب مع عائلته كلها. تنطلق من 78 وتنزل في القرية، في البلد الذي لا رقم له.

ما إن وصل إلى القرية حتى عمد إلى استئناف تشييد داره في هذه الأرض المسطحة القاحلة، بدون خضرة، وبدون رحمة. لم تصمد فيها أي شجرة، ولم ينجح فيها أي نبات في النمو. وكان هناك على طول الطريق أشواك وشجيرات رمادية، كانت أغصانها مثل سكاكين حادة، أحجار كبيرة، وغبار أصفر، ذباب في كل مكان، وخصوصاً في اليوم الذي تذبح فيه شياه. حين يكون الجو حاراً يختبئ الناس في حجراتهم وينتظرون الأصيل. يتعلمون الانتظار، يتعلمون ألا يفعلوا شيئاً. لا يتم الحديث عن الوقت، وعن مستلزماته الصارمة، يجلسون على

حصر برجلين معقوفتين. يغيّرون الوضعية، ثم يغيّرون المكان، إنهم لا ينظرون حتى إلى السماء، يغلقون الآبار مخافة أن يتبخر الماء، وينسون الساعات التي تنصرم ببطء شديد. لا يتبادلون الكلمات، يظهر أن الكلمات تصطدم بالجدران، وتسقط غباراً، تتفتت. لذا لا أحد يتكلم، ليس هناك ما يقال، ليس هناك ما يُعمل. يتبعون مسار صف من النمل الشغال، بعضها يتوه، يسقط في حفر، فيترك لحتفه. هذه القساوة تطال القلوب. فالعلاقات بين الناس قاسية متصلّبة. فالطفل الذي لا يطيع يتلقى صفعة تسقطه أرضاً. والبنت التي تنظر إلى رجل، بشكل ما، تُسْجَن. إننا لا نتحاور حول هذه المسائل، لا نفاوض. الحياة بسيطة، يعني أنها مريحة. أوّل أجهزة التلفاز والتي تشغّل بغاز البوتان كان يُفترض أن تفتح نافذة على العالم. لكن كانت مشاهدة صور التلفاز مصحوبة دائماً بالضحك، كان الأمر غريباً. كان هناك عالم أكثر توحشاً من عالمهم يعبر القرية ماراً بهذه الكوة بالأسود والأبيض، وكان الناس يشاهدون أفلاماً، وما إن يظهر رجل وامرأة متشابكي الأيدي حتى تلثم النساء وجوههن وبعضهن يقلن: هؤلاء النصارى لا يخجلون! أي حشمة. إننا في أحسن حال هنا، لكن ماذا يفعل رجالنا في تلك البلدان؟ هل يتركون أنفسهم تنجرّ بواسطة هذه الظلال الشبيهة بهيكل عظمي إلى أماكن الرذيلة؟ هل يضيعون نقودهم مع هؤلاء النسوة غير المحترمات؟

الأشغال التي بدأت قبل خمس سنوات أُوقفت بسبب نقص

النقود، منذ أن خطرت له هذه الفكرة صار لحياته ولتقاعده معنى. ابتعد عنه شبح الوقت قليلاً، ولم يعد يخيفه. صار الوقت واسعاً، خفيفاً، ملوناً، هوائياً، كان يتصوره مثل طيارة ورق في سماء صافية بنسمة ناعمة. كان الوقت يطلق سراحه، ويعطيه هكذا فرصة جديدة. ضيّع بعض الأشياء في فرنسا، وها هو الوقت يمنحه إمكانية إنجاح شيء آخر في المغرب. كان يرى داراً كبيرة، جميلة، مليئة بالنور، والأطفال. لم يزعجه أبداً اهتياج الصغار الزائد عن الحد، ولا صراخهم. كان يبتسم، يرسم الدار في عقله، يترك ما يكفي من متّسع للحديقة، يحصي الأشجار التي سيغرسها، يستعرض أنواع الورود التي سيطلبها من سوق مراكش. كان يتخيل بستان بقول، ويفكر في أن يكلف به نبيل الذي سيكون بدون شك بستانياً جيداً. باستحضاره لهذا الطفل يحدث أن تمتلئ عيناه بالدموع. كان يمسك نفسه. كان نبيل جذاباً، وله خيال. يضحكه ويعينه على نسيان مشاكل الأطفال الآخرين. كان يراه مثل أمير في تلك الدار، أمير وسيد. كان الوحيد الذي يمكنه أن يعول عليه. كان نبيل يحب أن توضع فيه الثقة. يحبّ أن يكلَّف بأشياء لإنجازها. أراد دائماً أن يكبر، أن يصير بالغاً قبل الأوان، وأن يخرج من الطفولة التي تختلط بتأخره. كان يعتقد بأنه إذ يكبر سيصير مثل الآخرين، كان يقول أنا مصاب بالمنغلة. هل الرأس على غير ما يرام؟ أنا ست عشرة سنة، بطل، الصيد، هيا جدي، نذهب؟

بقدر ما كان محمد يقترب من الحدود المغربية، بقدر ما كانت الدار تكبر، تعلو الجدران وتتسع الغرف، يركض اللبلاب

بسرعة كبيرة، تهتز النباتات، والطيور تغني. . . إنه يسمع حتى الخرير الناعم لفسقية ستتوسط الباحة. لم تعد داراً، بل ركناً من الجنة، ضرباً من قصر بحدائق، متنزهات، وحيوانات من كل الأنواع، حكاية من ألف ليلة وليلة، زربية كبيرة نسجتها مئات الأيادي. لم يكن ينقص إلا هارون الرشيد وحاشيته. يمكن لنبيل أن يشغل الدار لاسيما أنه يحب لعب المسرحيات الهزلية والقيام بخدع. كان يحلم ويضحك وحده، كان يرى نفسه لابساً الأبيض ومستقبلاً السلطات التي ستأتي لتدشين الدار المثالية لمهاجر نموذجي. ذلك الذي حوّل دائماً جزءاً من أجرته إلى المغرب. ذلك الذي استثمر في بلده، ويعد بأن يعيد إلى الوطن كل عائلته. سيوشّح المهاجر النموذجي من طرف الملك يوم عيد العرش، سيأتي ببدلة رمادية مدعوكة شيئاً ما، وقميص أبيض جديد، وربطة عنق بأزهار. سيأخذه الملك من كتفه ويقوم معه ببضع خطوات أمام كاميرات التلفزة، سيعطيه اعتباراً وأهمية مميّزة. وستنتهي كل مشاكله. وسترسل طائرة من طرف العاهل لجلب أبنائه وأمهم إلى البلد. كان يرى نفسه بقامة طويلة، نحيفاً، وبجيوب مليئة برزم من النقود عليه أن يوزعها على المحتاجين. كان مجنوناً من الفرحة، يرى نفسه يجري في الحقول، يقفز مثل طفل لاه، فرح. كان الأمر هكذا. يمتّع نفسه، ينظّم الأشياء حتى يتسنى للحياة أن تمنحه هدية رائعة. لقد اعتبر دائماً أن الله كان رحيماً به بأن جعل منه أباً جيداً، زوجاً جيداً، وليس لأحد من أولاده قضية مع الشرطة. كان يفكر في العربي، المسكين، الذي لا يزال ابنه الأكبر في السجن

بسبب هجوم بالسلاح، وأصيب الأصغر بذلك المرض الذي لا يريد أن يذكر اسمه لأنه يتطيّر منه. اعتبر محمد نفسه أنه كان محظوظاً. كان يفكر في ابنته الصغرى ويحرص على أن تقوم بدراسة الطب البيطري. فسّر له أحدهم، عامل من عمال المصنع ومناضل ضد سياسة الدولة الفرنسية، لماذا تقريباً لا يصل ابن أي مهاجر إلى الجامعة. أتفهم، أطفالنا ليسوا أغبى من الآخرين. إلا أنهم ومن المدرسة الابتدائية يحبطونهم، يوجّهونهم بشكل سريع نحو الدراسات التقنية، المهنية، لا أقول بأن هذا سيّئ. لكن لماذا لا يدخل أولادنا المدارس الكبيرة. هذه المدارس التي يلبس فيها الطلاب بدلة موحّدة كما يحدث في الجيش. لماذا ليسوا في مجالات البحث، في البنوك، وفي المشاريع الكبرى لهذا البلد السيئ. إننا لا نتحدث عن أصدقائنا في اليسار الذين لم يقوموا بشيء، أتعرف أنه في هولندا وفي بلجيكا هناك برلمانيون، نعم، برلمانيون من أصل مغاربي. بل إن هناك شابة من أصل مغربي وزيرة للثقافة في بروكسل. هنا في فرنسا، لدينا الحق في ملء السجون، وملء الكوميساريات، وأن نلاحق عندما نتجرأ على الكلام، هذا ما يجعلني أتقزّز. نحن، نحن انتهينا، لكن لماذا يتعرض أولادنا لنفس ما تعرضنا له؟ أتعرف ماذا؟ إنه رد الفعل الاستعماري القديم. ينبغي أن تجهد نفسك لتكون مثالياً. دائماً في طريقك عصا، حاجز للقفز عليه، أعلى من تلك التي يقفز عليها الأبطال. الأمر هكذا، هذا قدرنا، لذلك فإن فالصبيان، وهم خائفون، متقززون، ضائعون، بدأوا يحرقون كل شيء. لقد أحرقوا سيارتي

القديمة، وقالت لي شركة التأمين: لا تعويض للحالات النادرة. سيارتك انتهت.. الصبيان لا يذهبون إلى نيّي Neuilly للقيام بألعاب السيرك، لا، إنهم يحرقون مدارسهم، سياراتنا، إنهم يسيئون لأنفسهم، ثم يشار إليهم بالإصبع كمهاجرين للشقاء. أتعتقد أن ابني مهاجر؟ إنه لم يغادر أبداً الـ 78 إنه فرنساوي مئة بالمئة.

13

توقف القطار في قلب البادية، وأنهى بذلك حلماً كان يحمله محمد. نهض لتنشيط ساقيه، ورأى السماء. كان القمر يشع بنور كثيف، وكانت نجوم سيارة تعبر بياض هذا النور، بعضها كان يشبه قطرات ماء مطر صيفي. بدأ يبتهل ويشكر الله لأنه ساعده على مغادرة لانتريت، ومنحه فكرة جيّدة ليشغل نفسه. كان فخوراً ومستعجلاً خصوصاً. الوقت يجري بسرعة، ينبغي الوصول بسرعة إلى القرية، وعلى الفور مناداة معلّم البناء بوعزة لكي يواصل الأشغال. حين عاد القطار مجدداً إلى السير تملكته فرحة تتالت فيها صور كان يرى فيها نفسه، فصلاً بعد فصل، محاطاً من طرف ذويه، ويعطي لكل فصل لوناً: الأبيض للصيف، الأزرق المخضّب بالرمادي للخريف، الأخضر المشع للشتاء، والأصفر الذهبي للربيع. كان يحب وضع الألوان فوق الوقت، ومنذ أن غادر فرنسا عادت الألوان والموسيقى أيضاً.

حين وصل إلى طنجة، كان عليه أن ينتظر إلى ما بعد منتصف النهار ليستقل الحافلة إلى الدار البيضاء. وضع حقيبته في مستودع المحطة، وذهب يتمشى على رمل الكورنيش، كل

شيء تغيّر منذ اكتشافه الأول للبحر. كان هناك شبان يلعبون كرة القدم، وآخرون يتجولون. أوقفه متسولون وأعطاهم قطعاً نقدية. ومن حوله مزيد من العمارات في طور البناء. جلس في المقهى. عرض عليه سمسار: أتريد شراء شقة في واحدة من تلك العمارات الجميلة؟ عشرة آلاف درهم للمتر، ثمن رخيص، تشتري على التصميم الهندسي ثم بعد سنة تسكن، سيكون لك كل شيء، الماء الجاري، الكهرباء، التلفاز، التلفون وحتى الإنترنت، كل شيء. تعطيني تقديماً، سأعطيك وصلاً، ثم السنة المقبلة نلتقي هنا في هذه المقهى، وعلى الطاولة نفسها، موافق؟ لا، شكراً، وخلال ذلك عشرة متسولين على الأقل، نساء يحملن رضّعاً، مشوّهون، شبان في صحة جيدة، عجزة يظهرون وصفة طبية مدعوكة، يمرون وهم يمدون أيديهم، قال لنفسه: عددهم في تزايد، لقد فقد هذا البلد بعضاً من كرامته، هذا يزيد عن الحد، هناك إفراط في عدد المتسولين، في الرشوة، في المظالم، وبقدر ما تسير الأمور، تصير متجاوزة للحد. فكر في الطريق التي تنتظره، أجرى حساباً صغيراً ورأى نفسه وقد وصل أخيرا إلى البلد في يوم ونصف، ست وثلاثون ساعة إن جرت الأمور على الوجه الأحسن طنجة - كازا، انتظار، كازا - أگادير- ثم انتظار، أگادير - البلد في التاكسي... انتظار، انتظار، الصبر، الصبر، هذا ما كان يُقال له في مكة. الصبر يا حاج! الصيغة السحرية، طوال فترة الحجّ تعلَّمَ الصبر، ثم مع الوقت افتقده، صار متوتراً وكان يقوم بمجهود لكي لا يظهر ذلك، أحس مجدداً بحنق صغير ينمو

بداخله: لماذا أحرقوا سيارتي؟ لماذا لم تعطني شركة التأمين شيئاً، على الأقل ما يمكّنني من كراء واحدة في انتظار أن تجد الحكومة حلاً لآلاف الناس الذين فقدوا سياراتهم، والتي هي في الغالب تُستخدم في عملهم، ثم تذكر أن مندوب شركة التأمين اتهم المهاجرين، ولم يكن حاضر البديهة ليصحح له: هؤلاء الشباب الذين يحرقون السيارات والمؤسسات العمومية ليسوا مهاجرين. إنهم، ربما، بل وبدون شك، أولاد مهاجرين، لكنهم ليسوا مهاجرين، حتى التلفزة نفسها تحدثت عن الهجرة، لا شيء عادياً في كل هذا. كل ما كان متأكداً منه، هو أنه هو لا دخل له فيما وقع، لا هو ولا أولاده.

استقر المقاول بوعزة في مراكش، وكان متكفلاً بعدة ورش في الوقت نفسه. لقد صار غنياً، ومن الصعب الاتصال به، وقد نسي على ما يظهر من أين أتى، وما إن وصل إلى القرية نسي محمد بوعزة ونادى أولاد عمه وأقاربه الكثر الذين بدأوا في العمل. لقد استعاد طاقته التي كانت له حين كان عمره عشرين سنة، وذابت أفكاره السيئة في الاسمنت والجير. كان الجيران يأتون لرؤية هذه البناية التي لا شكل لها، بناية غريبة لا تشبه الدور الصغيرة المبنية في المنطقة. يطرحون أسئلة، ثم يذهبون وهم يتساءلون هل فقد محمد العقل. لقد فقد الكثير من وزنه، وكان ينام بجانب المواد ويهمل نفسه. لقد أدى أجرة مهندس ليعد له التصاميم الهندسية، لكن البنّاء لم يكن يأخذها بعين الاعتبار. كان يتبع تعليمات محمد الذي لم يكن يستطيع أن

يشرح بشكل جيد ما يريد إنجازه، كان يكرر: أريد داراً كبيرة، أكبر من كل أكواخ الدوار، كبيرة كبر قلبي، ينبغي أن تظهر من بعيد ويقال: هناك يسكن محمد وكل عائلته، أريد القول، مع كل أولاده، نعم، سيأتي أولادي للعيش معي في هذه الفضاءات اللانهائية. . أولادي وأحفادي. . ستكون دار سعادة، دار سلم ووئام. كان يتوقف ويقول لنفسه إنه يبالغ قليلاً. لقد صار غريباً بحيث إن تلك الدار تحولت إلى مكان كل شيء فيه عديم التناسق، بدون أي منطق، إن لم يكن منطق هوسه: جمع كل عائلته تحت هذا السقف الذي يشبه غطاء طنجرة كبيرة لا شيء فيها في مكانه.

بعد مضيّ خمسة شهور كانت الدار تقريباً جاهزة. كانت تنقص الصباغة، المصاريع، النوافذ الزجاجية، وكل تلك التفاصيل التي تجعل من الأمكنة قابلة للسكنى. لم يكلم أياً من أولاده عمّا قام به كي يفاجئهم، في الواقع، يخاف أن يحبطوه، كانوا صريحين في أقوالهم، وكانوا سيقولون له أشياء تؤلمه. لذا لم يكن يريد أن يعرف رأيهم في ما قام به. كان يفضّل أن يدهشهم. التحقت به زوجته. كانت تعرف أن زوجها ضل الطريق وأنه يغذي نفسه بالأوهام، وكالعادة لم تعارضه. لقد فهمت، منذ زمن طويل، أن بناتها وأبناءها لم يعودوا في ملكهم، وأن دوامة فرنسا التهمتهم، وأنهم يحبون حياتهم، ولا يحسون فيها بالأسف والندم. لقد رأتهم يذهبون، وعرفت أنها لا تمتلك الوسائل لإبقائهم، لأن تحتفظ بهم بجانبها هي

وزوجها. كانت تنظر من حولها وتلاحظ أن فرنسا تلتهم، بشكل أو بآخر، أولاد الأجانب. وفي الحق كانت الأمور تجري بشكل بسيط جداً، ليست هناك إرادة عدوانية لتجريد الأجانب من أولادهم، كان من الطبيعي حب مسقط الرأس والارتباط به. لم تكن هناك مؤامرة أو فخ، لكنها هي، كانت تعرف أن ليس بإمكانها الصراع ضد هذا الانجذاب. كانت تكتفي بالحديث إليهم، تقديم النصائح لهم، لكنهم بالكاد كانوا يستمعون إليها. كانت الحواري تقلهم نحو المغامرة، نحو لقاءات جديدة، نحو حياة مختلفة جداً عن حياة والديهم التي ليس لهم، تقريباً، ما يأخذونه منها، المصنع، التناوب الثلاثي في العمل، الحزن والتعب، الخمسة أو الستة أسابيع في البلد، الروتين، ثم السقف الواطئ لهذه الحياة، لا شيء في هذا كان صالحاً حقاً لإعادة الإنتاج، لكل واحد حظه، لكل واحد قدره، لكننا لا نفكر في هذا، إننا نعيش، نتصرف ثم ننتبه إلى أن هناك خسائر. سقط من الشاحنة، كان التعبير المفضل لأمهم. لقد حفظته عن ظهر قلب، من دون أن تعرف معناه بالضبط. بالنسبة لها كان الأمر تشبيهاً بحوادث صغيرة، جروح حياة، كما لو أن العائلة تركب شاحنة تجنح. المشاكل؟ سقط من الشاحنة! هو، خلال الوقت، كان يبني أكبر دار في القرية. كما في الزمن الماضي، لم تغيره أربعون سنة من العيش في فرنسا. لقد بقي سالماً، ولا أدنى ثنية، نقياً، كاملاً، لم يتأثر. لقد كان منغلقاً بشكل طبيعي ومحكم. لا شيء في فرنسا كان يجد مكانه في قلبه، وفي روحه. وهذا ليس حتى قراراً تم التفكير فيه، تمت

مناقشته. كان الأمر هكذا. ولا شيء بإمكانه تغييره. كانوا ملايين مثله، يصلون إلى أرض الهجرة مصفّحين. لا اختلاط. لهم حياتهم، ولهم عاداتهم، ولنا حياتنا وعاداتنا. كل واحد في محله، ولا تعدٍّ، ولا تدخّل في شؤون الآخر. بل إنه لم يجهد نفسه في أبعاد ما يسمّيه عدوى فرنسيس نحوه. كان أجنبياً، ولا يمكن التأثير فيه مطلقاً. كان البلد وتقاليده يسكنانه في الوقت نفسه الذي يبعدانه عن الواقع. كان في عالمه، ويعيش بدون أن يطرح على نفسه أسئلة. كان يحيل كل شيء على الإسلام. ديني هو هويتي. أنا مسلم قبل أن أكون مغربياً، وقبل أن أكون مهاجراً، الإسلام ملاذنا. إنه هو الذي يهدئني ويهبني الأمان والسلام. إنه آخر ديانة موحى بها، لقد جاءت لغتهم فصلاً طويلاً بدأه منذ مدة طويلة. هنا لهم دينهم ولنا ديننا. لم نخلق لهم، ولم يخلقوا لنا. العقد واضح. أعمل، يؤدون لي أجرة. أربي أولادي، ثم ذات يوم يرجع الجميع إلى الدار. نعم الدار، إنها بلدي، وطني.

حين رأت زوجته أبعاد الدار، أطلقت زغرودة مدوية، ثم سألته عن مآلها، وهي تفكر أن بإمكانه أن يحولها إلى حديقة ألعاب للأولاد حين يأتون في العطل. أجابها: نسكن فيها. أنا وأنت وكل أولادنا. الأمر بسيط، هذه الدار تجمعنا، ملكيتنا الغالية جداً. كل حجر فيها قطرة من دمي، كل جدار هو هدب من حياتي. ستمكن أخيراً من التجمع، ونعيش مثلما كنا نعيش من قبل. مثلما عشت أنا، كما عاش أبي. لم أقم إلا بتتبع الطريق التي خَطّها من سبقونا، ويعرفون أحسن منا ما هو صالح

لأعقابنا. لقد توقعت كل شيء. غرفة لكل واحد مع حمام. دولاب في كل غرفة لترتيب الأغراض في الشتاء. اشتريت جهاز تلفاز كبيراً، سيكون في الصحن، وسنشاهد معاً برامج مسلية. سترين أيضا حماماً، وقاعة للصلاة، ستكون دار سعادة، بل إنني أفكر حتى في تركيب تليفون داخلي، مثل ذلك الموجود في عمارات فرنسيس، من الأفضل أن ترن عند كل واحد وواحدة من الأطفال قبل أن تدخل، ثم سيكون هناك بجانب الدار، بالضبط، خُمّ لأحسن الدجاج والديكة. لن تكون هناك أرانب، لأنني أعرف أنك لا تحبين ذلك. لكن ستكون هناك حيوانات أخرى، دجاج وخراف، بقرة أو اثنتان، لم تعد هناك حاجة للذهاب إلى لوكليرك. هذا جيد. أليس كذلك؟ أنا سعيد جداً، وأنت، أنت سعيدة، لقد أحسنت صنعاً، أليس كذلك؟ لقد وضعت هنا كل ما ادخرته بل إنني اقترضت قليلاً. . . الحجر، الأرض، أشياء صلبة، أفضل بكثير من النقود. انظري من حولنا. لا أحد له دار بمثل كبر وجمال دارنا. لقد نجحت. نعم، نجحت. هذا دليل على أن بإمكاننا أن نذهب إلى الخارج ونعود سالمين كما كنا في اليوم الذي غادرنا فيه القرية. هذا رائع. أنا حسبت المسألة. فرنسا ضرورية، كان يتوجب أن نعقل ونجمع المدّخرات. لكن فرنسا صالحة للفرنسيين، وليس لنا. ليس لنا مكان هناك. لهم دينهم، يتزوجون ويطلّقون بيسر، ثم نحن، نحن لنا ديننا، وحين نتزوج نفعل ذلك مدى الحياة، على طول، أتفهمين، سأنقذ أولادي، سأخرجهم من الديانة الأخرى، سأجلبهم عندنا

لنواصل العيش، مثلما كان آباؤنا وأجدادنا يعيشون. من المؤكد أن الحل يكمن في هذا، لا في مكان آخر. هناك متسع، ثم إن الأرض هنا جيدة. انظري كيف تنمو النباتات. انتهت فترة الجفاف، ليس هناك من سبب يجعل أولادنا يعيشون بعيدين عنا، لا، لا سبب.. كان يكرر هذه الجملة بلمعان غريب في عينيه. كان مسكوناً، مسحوراً بفكرة ثابتة، كان يردد، إلى ما لا نهاية، بعض الكلمات. يتحدث وحده، يحك رأسه، يقف ثم ينظر إلى السماء ويخاطب الغمام النادر.

لم تقل زوجته شيئاً مخافة أن تحطم حماسته. لم يكن لها ما تقوله. وكالعادة، لا ينبغي لها أن تعارض زوجها. هذا تعاقد بينهما. ربما كان بصدد فقدان العقل، لكن كيف يمكن إيقافه، كيف يعاد له عقله. إنها لا تعرف. عهدت لله بمشكلتها، لأنها تعرف أن الله لا يتخلى أبداً عمن يلوذون به ويحبونه.

14

كانت الدار غريبة، إنها تشبه شاحنة تجاوزت الحمل المسموح به. ضرب من رزمة لم يتم إحكام ربطها. كانت مائلة وتشكل لطخة في المنظر المحيط بها. يمكن القول إنها ستسقط وتسحق محمد تحتها. كان البناءِ قد صمم تبعاً للتعليمات الفوضوية لمحمد، كان يقول له: طيب، هنا يجب بناء غرفة جميلة وكبيرة جداً من أجل الولد الأكبر وزوجته، إنها أجنبية. أريد أن أرضيها، أن أظهر لهما بأن لنا، ولو كنا فقراء، قلباً كبيراً، والغرفة ينبغي أن تكون كبيرة كبر قلبي، أتفهم، ثم بجانبها ينبغي بناء غرف أخرى، لكل واحد غرفته. لا تنس الحمام، الفرن، ثم هنا مكان للدجاج والشياه: أترى، ينبغي أن تكون الدار مثل قصر صغير، قصر فقراء، لكنه جميل، مضياف، متسع، رائع، هيا خطط، أنجز عملك، ولا تنس النوافذ وكوات التهوية للصيف. فالأطفال يأتون في الصيف خصوصاً. انظر، هل بإمكانك أن تبني لي مسبحاً، أعرف، ليس هناك ماء، لكن حين ستنتهي من البناء سيكون الماء هنا. . .

أي منزل هذا، غلطة، حماقة، كانت الشرفات ضيقة، النوافذ صغيرة، وباب الدخول كبير، وفي الوسط باحة، ضرب من فناء أندلسي. غرس فيه محمد شجيرة منذورة لاختفاء مؤكد بسبب الجفاف الذي له عاداته في المنطقة، كانت الأرضية مغطاة بإسمنت من نوع جيد، لكنه ينتظر دائماً زليجاً طُلب من فاس، أو هذا ما يدعيه البناء. طليت الجدران بتادلاكت، وهي مادة تحفظ من الرطوبة، وتجعلها تلمع. بعض الجدران طليت بالجير، من السقف تدلت خيوط كهربائية بدون حبابات كهربائية، كان ربط الدار بالتيار الكهربائي، من بين وعود قائد القرية. كانت الحمامات كلها مجهزة، لكن الربط بالماء كان أيضاً من بين وعود القائد. يقال هذا والناس، آنذاك، لم يكونوا يطلبون منه أي شيء ، وهم يعرفون أن ذلك لا يتعلق به، ففي كل الأحوال كل شيء يأتي من الرباط، لكن من يكون هذا الشخص، ذو الوجود غير المحتمل، الجالس في مكتب مكيّف، وذات صباح ستكون له فكرة صغيرة عن سكان هذا البلد؟ من بإمكانه إذن، أن يأتي لمساعدة محمد وهو منهمك في إصلاح تناقضات المنفى؟ أخيراً يجدر به ألا يفكر في الأمر، فصورة الموظف الصغير في الرباط تلاحق محمد، كان يتخيله، يراه، يشم رائحته، يلبس بذلة ذات لون كستنائي غامق، وقميصاً رمادياً لم يغيّره منذ أربعة أيام، وربطة عنق سوداء، من حين لحين كان يرفع يده ويشم إبطه، كان يتعرّق، ولا يملك معطّراً لكي يخفي رائحة العرق المتراكم، في المرة الأخيرة استعمل قارورة عطر مشتراة من مختص في تقليد الماركات العالمية،

مما أورثه دُمّلاً وحكّة كريهة. هذا الموظف يدخن ويدمدم كل الوقت، لأن أجرته لا تكفيه، إنه أقل موهبة من زملائه الذين يكسبون مالاً قليلاً ببيعهم لوعود هنا وهناك. هو لا يعرف الكذب، ولا يعرف المناورات لكسب المال بوصفه موظفاً في وزارة الأشغال العمومية. وهذا يعطي سلاحاً لزوجته التي تدير ضده حرباً يومية. لذا كيف تريدون أن يفكر هذا الرجل، الشهم في سريرته في مشاكل آلاف من الفلاحين الذين اعتادوا العيش بدون ماء ولا كهرباء. إنه يفكر بالأحرى في الكيفية التي يكسب بها قوته، وفي الوقت نفسه احترام زوجته، ذلك أهم من دار محمد الزماكري. يحك الموظف الصغير رأسه، يمرر يده على شعره الدسم، يحك، يفتح ملفاً، يتصفح أوراقه، يتظاهر بأنه يبحث عن كلمة، يرفع رأسه، يلاحظ بيت عنكبوت في ركن السقف، ينكس عينيه، مذعناً، ثم يخط بقلم أحمر طلب محمد، إنه يريد الماء الصالح للشرب؟ ولم لا يطلب ما يملأ به مسبحاً، هل أطلب أنا شمبانيا حين أدخل إلى الدار؟ هؤلاء الفلاحون لا يفهمون أن الدولة لا تستطيع شيئاً بالنسبة لهم. إنهم يهاجرون، يجمعون ثروة ويعودون متكبرين يطلبون الماء والكهرباء كأنهم يسكنون المدينة. في كل الأوقات عاش أناس البادية على مياه الآبار، واستعملوا الشموع للإنارة وغاز البوتان لتشغيل التلفاز. ليس لأنهم عاشوا في أوروبا سيصير لهم الحق في أن يضايقونا. أنا أريد حقاً القيام بجهد، لكنهم لا يفهمون أن عليهم المساهمة في التكاليف. أنا أريد أيضاً أن أهاجر، ستكون زوجتي سعيدة بذلك، سيكون بإمكانها أخيراً أن تستشير

أطباء كباراً، لكي تلد أخيراً أولاداً. تقول إنها غلطتي. كان ينبغي أن أجعل الخادمة تحبل لكي لا تستخدم أبداً هذه الحجة. من حسن الحظ أن الخادمة أسقطت الجنين، وقد طردتها بعد أن أخضعتها لتحقيق دقيق. الحاصل، هذه قصة قديمة، سأضع الملف في قائمة الانتظار، إنها قائمة ستبلغ قريباً خمس سنوات. لقد صارت ضمن الأثاث، المنظر، لن أتصور هذا المكتب بدون هذه القائمة. ماذا يمكنني أن أفعل لتصير زوجتي ودودة؟ أهديها هدية؟ لكن ليس أي هدية، الرسم العقاري لملكية، مفاتيح سيارة جديدة، أو على الأقل عقد ذهب أو خاتم بشيء يتلألأ، سفرة إلى تركيا، ليلة تحت النجوم بالقرب من الأهرامات؟ وأحسن من ذلك أيضاً، حقيبة مليئة بالأوراق النقدية، منذ أن رأت ذلك في فيلم مصري، صارت تعرف ذلك. لا تتوقف عن القول لي، انظر إلى ما يفعله الرجال الحقيقيون، لا الإمعات الرخوات مثلك، لاحظ، أو على الأقل تعلم، خذ درساً، لا تقربني، لا تأت لتبكي على كتفي. ففي الفيلم لم يسمح لنفسه بأن يضع رأسه على كتف زوجته، إلا بعد أن أعطاها حقيبة مليئة بالنقود. لا تعوّل عليّ لأغسل لك شعرك. اتركه دسماً وقذراً. شعرك يعبِّر عما أنت عليه بطريقة رائعة. زوجي على كل حال، زوجي المفترض، له شعر دسم لأن جيبيه فارغان، لأنه غير قادر على إرضاء زوجته، لا على المستوى الجنسي، ولا على المستوى المادي، زوجته محبطة، كان بإمكانها أن ترحل بالفعل مع رجل آخر، لكن لها مبادئ تحافظ عليها.

بدأ الموظف الصغير يعد عدد الملفات التي في قائمة الانتظار، مائتان واثنان وخمسون ملفاً، ولا ملفّ من هذه الملفات له حظ الوصول إلى مبتغاه. حكَّ رأسه، نظر إلى أظفاره المليئة بالقشرة الدسمة، استدار نحو زميل له واقترح عليه الذهاب لشرب قهوة.

15

في اليوم الذي استقر فيه في الدار، لم تكن قد انتهت الأشغال تماماً فيها، لكن لا شيء يوقف محمد، إنه عنيد، وهذا جزء من كينونته وعاداته، يقال عنيد كبغل، لكنه هو وقبيلته تجاوزوا عناد البغال. كان يرفض البداهة، يواصل عناده كما لو أنه كان مشدوداً إلى قضبان سكة حديد، لا يمكنه أن يتحرّر منها. لم يكن يناقش الأمر هكذا، كان يندفع برأسه أولاً، والعينان مغمضتان، وعلى يقين مطلق بأن الحق معه، رأس نحاسي صلب، لا ينكسر. فكرة ثابتة وحيدة، لا نسمة يمكنها أن تهويها وتجعلها مرنة. لا، عناده يمثل حالة، لأنه مشدود، بكل قواه، لما هو بدائي وعتيق. محمد يعرف هذا، لكن عناده جزء لا يتجزأ من كينونته الأكثر عمقاً.

هناك غرف بقدر عدد الأطفال، ليس لها المساحة نفسها، بعضها تتواصل مع بعضها الآخر بواسطة باب واطئ، أسيء تخطيطه، والنوافذ صغيرة، وبمقاسات مختلفة. أخذت غرفة الصلاة مساحة مبالغاً فيها. كانت مفروشة بحصيرات وتنتظر إماماً ومؤمنين. لم يطرح محمد أبداً على نفسه السؤال، ليعرف

هل أولاده كانوا مسلمين خيرين أو سيّئين، هل يصومون، ويصلّون، وهل يشربون الخمر؟ من المستحيل تصور ذلك، على العكس، كان يراهم كلهم هنا، وهو أمامهم، يؤم الصلاة، وهم خلفه عقلاء خاضعين لمشيئة الله. إنه يراهم ويسمعهم يطلبون من الله العون والثروة. في هذه اللحظة ظهر خيال أسود. أحدهم ملفوف من الرأس إلى القدم بثوب أسود، ويداه في قفازين أسودين، ينتعل بلغة سوداء، كتلة سوداء متحركة، ربما هي امرأة أو لص متنكر في هذا الزي المضحك. كان الخيال المضحك يحوم حول الدار بدون توقف، حضور غريب، ثقيل، غير محدد. تساءل محمد: من هنا؟ لا جواب. كبر الخيال. أرسل ريحاً باردة ثم اختفى. لقد خاف، ليس من أن يُهاجَم، وإنما أن يكون هذا الشيء رسولاً للنحس. ككل أفراد قبيلته، كان يتطيّر، لم يكن يقرّ بذلك، فالنساء هنّ من يعتقدن بهذه الأشياء، هذا «الشيء الأسود» لا يُنبئ بشيء جيّد. فكر في رسالة من الشيطان، أو أن أحد الأشرار، جار حقود جاء ليخيفه، أو ليلقي أذى من السحر. كان يعرف بأن السحر والنفاق عملة رائجة في هذه القرية. كانت زوجته تعطيه طلاسم ليحملها معه ضد حسد عائلته. كانت تقول له: هذا طبيعي، ما إن يخرج أحد من هذا الفرن، حتى يقوموا بكل شيء ليسقط فيه مجدداً. لا يحتملون أن يكون الآخرون في صحة جيدة، وأن يهاجروا. بالنسبة لهم الهجرة نعمة رائعة. إذن، انتبه، أبناء إخوتك وأخواتك وأقرباؤك ينظرون إليك ككبش العيد. إنهم يقتسمونك وهم يرونك تصل بهذه السيارة المليئة بالهدايا. خذ

حذرك، إن الأقارب هم الأكثر حسداً، الأكثر خطورة، إنهم يضمرون لك السوء.

قال محمد كل الأدعية التي يحفظها عن ظهر قلب، كررها، ثم غمره إحساس سيّئ. جسدياً كان شجاعاً، لكن ذهنياً لم يكن على ما يرام. ملأ عقله شك ما، وتجوف فراغ كبير في بطنه. كان الأمر موجعاً، كأنه حرقة، فكر في أن ذلك سببه حموضة ما بعد العشاء، لكن انفعاله، كان بكثافة أخرى، كان الشيء الأسود يتمتم، يصك أسنانه، يروح ثم يجيء. نطق الشهادة عدة مرات: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.. رأى الشبح يبتعد متبوعاً بغيمة من غبار. توضأ بما بقي من ماء في جَرّة وصلّى عدة مرات لكي يمحو، أو على الأقل، يبعد هذه الرؤيا المشؤومة. عبر وطواط باحة الدار في كل الاتجاهات. ترنح محمد ثم نام نوماً عميقاً لم يرَ فيه حلماً ولا كابوساً.

في الغد، ومع غروب الشمس، صعد إلى السطح حيث نصب خيمة، ستصلح في الصيف للنوم في طراوة الليل، لكي يصل إليها ينبغي صعود سلم معوجّ. كان يفكر في الشيء الأسود، فتجلّى له بوجه مكشوف جزئياً هذه المرة، خاطبه كما لو أنه فرد من العائلة، ابتهل لله ورسوله عبثاً، وطلب حماهما، كان الشيء يكبر، وهو يحدثه تارة بالأمازيغية، وتارة أخرى بالعربية: مسكين! صرفت كل نقودك في هذه البناية لترقص على رأسك، لتمشي على يديك، لتأكل القنفذ، وتشرب حليباً مليئاً بالرمل، ستغصّ بالطعام، وستموت مختنقاً، لأن لا أحد

سيأتي لإنقاذك، لقد بنيت داراً في البقعة الوحيدة التي لا يملكها الإنس، لقد انتهكت أسرار أسياد المكان، لقد أزعجتهم وأسأت إليهم، ستبقى هذه الدار فارغة، فارغة، ولا نفس ستدخلها أبداً. نفسك تبقى في الخارج، لأنك لم تكن تعرف ما كنت تفعل، لكن، وابتداء من ليلة القدر القادمة سترحل، وستترك الدار لأسياد المكان، أولئك الذين يملكون أعماق الآبار وعنان السماء، أولئك الذين يحرقون العيون التي تشاهدهم، أولئك الذين لا يتركون أي أثر، ولا يعرفون الخوف ولا الخجل، أولئك الذين هم أقوى من الشيطان، لأنهم هنا منذ الأبد، منذ قرون، ألفيات، ولا يحبون غير المحتاطين، السذّج، غير المكترثين. أولئك الذين يعتقدون بأنهم سيدفعون للهرب بتلاوة دعوات مسكين! كل هذا من أجل لا شيء، لا تنظر إليّ، وإلا ستصير تراباً تحمله هبة ريح إلى رمال بعيدة! اسمع جيداً ما أقوله لك، وافعل ما آمرك بأن تقوم به! أنتم أناس الخارج نسيتم أرضكم، وتعودون لملئها بالأحجار. ضعتم، وأولادكم ضائعون، حتى إنهم لم يعودوا يتعرفون عليكم أبداً. لقد تخلوا عنكم، إنهم يفلتون منكم، وأسياد المكان قرروا ذلك، إنهم لا يريدونهم، إنهم أبناء الأرض الأجنبية، جحودون، بدون جذور، ولا دين. جذور هذه الشجيرات قطعناها، حرقناها، صارت رماداً وغباراً. اذهبوا إلى المقبرة لتترحموا على قبور القدامى، أصيخوا السمع، واسمعوا ما يقولونه لكم، إنهم حكماء وعادلون، سيقولون لكم إن هذه الدار خطأ، إننا لا نسكن في خطأ، خصوصاً إذا كان الخطأ

كبيراً، لا نأتي لإزعاج أسياد المكان لأنهم غير مرئيين. أنتم لا ترونهم لكنهم هم يراقبونكم ويتتبعونكم. لكي لا يقع لكم معهم مشكل، ليس لكم إلا حل واحد، اذهبوا واتركوا لهم هذه البناية التي سيجعلونها سجناً للزائغين مثلك. أناس الخارج ما عادوا يعرفون من هم، ولا من أين أتوا في النهاية. نصيحة أخيرة، لا تكلفوا أنفسكم عناء جلب أناس يلبسون الأبيض ويرتّلون إلى ما لا نهاية كلاماً، بينما هم لا يفكرون إلا في الوليمة التي تلي..

اختفى الظل، كان محمد مصعوقاً، وأحسّ برعشة، ما العمل؟ أيصدِّق أم يسخَر؟ قام بابتهالات وصلّى مجدداً. طلب من الله العون والدعم، أحس بنفسه قد هدأت تقريباً، فذهب للنوم في مسكنه القديم. كان الليل طويلاً مرهقاً، أرق مضطرب وقاس، كأن ذاته ترتجّ من كل الجهات، ينهض، يمشي ثم يسقط من التعب في سرير كان يصرّ ويتحرك كما لو أنه يُدفع لذلك بواسطة أيدٍ غير مرئية. كان يحس بأن كل شيء يفلت منه ولا يتحكم في أي شيء، سقط القرآن عن الطاولة التي كان موضوعاً عليها ملفوفاً بقطعة من كفن، بعض صفحاته تمزقت، تعالت في السماء ثم اختفت، كان مشوَّشاً. أراد أن يعرف أي سورة ذهبت مع الريح، سيقرأها ويعيد قراءتها، لكنه كان عاجزاً عن ذلك. بقي يدعو الله حتى طلوع الشمس. بحث بعينيه عن المكان الذي حطت فيه الصفحات، وتبين أنها لم تترك أي أثر. حين فتح القرآن اندهش لكون عدة صفحات كانت بيضاء كلية،

امّحت الآيات، ابتلعها شيء ما غير مرئي، لفّه بقطعة الكفن وشدّه إلى صدره، ونام هكذا فوق الأرض، فوق سجادة الصلاة، الوجه متصلب، والجسد مكوّم على نفسه، ومن حين لحين تصحّيه رعشة. أحس بالبرد في عز الصيف، كان يتعرق، وأحسّ بالحمّى.

كانت الدار تشبه في فوضاها الفوضى التي تسود أفكاره، وخصوصاً الأوهام التي تسكنه. كانت الحمامات في الطابق بمراحيض على الطريقة التركية. لن يستعمل أبناؤه أبداً هذه المراحيض، لم ير أبداً مراحيض بدون حوض، ولا حتى في فيلم.

صعد محمد إلى السطح، وراح يراقب الأفق. كانت السماء زرقاء، حجرية، برتقالية، بيضاء، كان يراها أو يتخيّلها بهذه الألوان المفضلة. وكان هنالك صمت كبير يغلف هذا العالم، عالمه، أحس بنفسه، شيئاً فشيئاً، في حالة جيدة، كأنه تصالح مع نفسه ومع العالم الخارجي. استقر هناك، ولم يعد يسمع أبداً الأصوات البعيدة للطريق ولا كلام الظل الأسود. تنبه إلى أنه الوحيد الذي يمتلك داراً بهذا الكبر وبهذا العلو، لم يقلقه هذا أبداً، بل كان فخوراً بما أنجزه، على الأقل فكَّر هو في عائلته، ليس مثل هؤلاء المهاجرين الذين يهجرون الزوجة والأولاد، ويأتون لحرث الأرض في انتظار الزواج براعية صغيرة.

تجوّل بين الطوابق، أحصى عدد الغرف، أخطأ ثم أعاد

الحساب. بقي طوال الليل مشوشاً بهذا الحساب، لأنه كان يريد أن يعرف كم كلّفه كل هذا، ولم يكن يصل إلى نتيجة. في اللحظة، التي أراد أن ينام فيها، تنبه إلى أنه لا يتوفر على ماء ليذهب إلى المرحاض ويتوضأ قبل صلاة العشاء. ذهب إلى مسكنه القديم، اغتسل بسرعة، وعاد لتهيئة الدار لهدف طالما تمنّاه: استقبال أطفاله، استقبالهم مثل رب حقيقي لعائلته، مثل سيّد، والد مسؤول، حلم، شغف. كان يقول لنفسه إن بعضهم يحلمون ويطمحون لجمع الكثير من النقود، أو ليصيروا وزراء أو رؤساء محطات، أما هو فكان حلمه بسيطاً بساطة كبيرة: أن يرى أولاده متحلّقين من حوله. وليس هذا طلباً كبيراً بالنسبة للحياة، لله، للصدفة، لفرنسا. جلب أولاده إلى هنا، إلى هذا البلد الجاف، إلى هذه الدار الوحيدة، في هذه السن، وفي هذه السنة التي غيّرت فيها حياته إيقاعها ووجهتها.

استعرض حالة كل واحد من أبنائه: مراد الأكبر، ولو أنه متزوج من نصرانية، سيأتي، إنه منضبط، وودود، ويحرص على رضاي، رشيد الذي يدّعي أن اسمه ريشار، كان يحس بالضيق، وأفلت مني بسرعة، كان يقضي أكثر أوقاته في اللعب بباحة العمارة، بدل القيام بواجباته، سيأتي إن ألح عليه أخوه. عثمان ولد جيد، لكنه سيفعل ما ستقوله زوجته، وهي مغربية من الدار البيضاء، هي لا تحبّنا، كانت تعتبر نفسها أفضل منا مجتمعين، لكون والديها ليسا مهاجرين، لذا أشك في مجيئه. ستأتي جميلة، لأنها ستكون فرصة لنا لنتصالح، لكنني أشك في أمرها هي أيضا، لأنها حقودة وعنيدة مثلي. أما بالنسبة لنبيل

فسيكون سعيداً جداً بجانبي، أما الصغرى رقية فستطيعني بدون مشاكل، هذا ما أظنه على الأقل.

في ليلة جمعة، متجاوزاً تهديدات «الشيء الأسود» جاء بقرّاء القرآن، ومن بينهم لاحظ شخصاً ببنية ضخمة، رقيقاً، ويلبس الأبيض، حكى له عن الظل الأسود، فأضحكه ذلك. إبان القراءة نحر جزار ثوراً على عتبة الباب، بينما كانت زوجته تحرق البخور في الداخل، وتدلق قليلاً من الحليب في ركن البيت. لقد تمت مباركة الدار، لكنها كانت غير قابلة للسكنى، كانت الصلوات التي تقال بنبرة مثيرة للضيق تتردد بين الجدران، مما ولّد تأثيراً مقلقاً، كان هناك صدى وصوت غريب، ظهرت بعض الشقوق في الجدران، نهض مقرئ وذهب مهرولاً، وهو موقن بأن الجن في الدار. قُدِّمت للقرّاء قصعة كسكس في صحن الدار. أكل الرجال بصمت وبسرعة. انتحى الرجل صاحب البنية الضخمة بمحمد جانباً وهمس في أذنه بأن هذه الدار في حاجة إلى مزيد من الحماية، ليلة واحدة من قراءة القرآن لا تكفي، قال له: يجب هزم مقاومة الشياطين، أعتقد بأن أهل المكان، أولئك الذين يمتلكونها، منزعجون ويطلبون التعويض، وحده كلام الله ينفع ضد هؤلاء الناس الذين يخرجون من الحجر غباراً أسود يكبر، ويتحول إلى شيء مهدد، يجب مضاعفة عدد المقرئين، ولو اقتضى الأمر جلبهم من بويا عمر، أتعرف الوليّ الصالح الذي يشفي المجانين، إنهم يعرفون كيف يخاطبون الكائنات الشريرة التي تمتلئ بها الأرض، والتي

تنتظر بقاءك وحدك لكي تقطعك إلى أشلاء. هل تذكر ماذا وقع منذ ما يربو على عشر سنين، حين تحدى بوشتى هؤلاء الناس؟ لا، إنك لا تتذكر، أو أنك لم تكن هنا، اعلم أن المسكين سقط في حفرة، ولم يعثر عليه أبداً، لأن الحفرة امتلأت بسرعة بالتراب، رغم أن الناس أنذروه من قبل: تلك البقعة من الأرض المشتراة برخص التراب، كانت مسكونة من طرف هؤلاء الذين لا يرون، هل تفهمني أخيراً، لم يرد معرفة أي شيء، ولم ينصت لأحد، ذات ليلة حين كان يأخذ قياسات هذه البقعة، وحتى قبل أن يبدأ في بنائها انفتحت الأرض وابتلعته، ولم يظهر بعدها أثر لبوشتى، لم يكن له الحق حتى في مراسم الدفن، بما أن جسده تبخر. الأمر جِدّي، ربما إنك تعتقد بأن هذا كلام فارغ، لكن الوقائع دامغة. النتيجة، لأنك مسلم جيد، لن تخشى، لا تنس الجمعة المقبلة ليلة كاملة للقراءة.

حين ذهب كل الناس، بقي مع زوجته أمام ثور بدون رأس، ومليء بالدم. كان غير قادر على القيام برد فعل. نظر أحدهما إلى الآخر، وغادرا الدار وسط ليل لا قمر فيه، هناك فقط ضباب أسود له هيئة رأس عجل، في الصباح الباكر، أخذ الجزار العجل ليقطعه، وكان لكل عائلة نصيبها من اللحم، كانت القسمة عادلة، والتعليقات أكثر اعتدالاً.

16

بآخر مدخراته جهز جزءاً من الدار، اشترى كرسياً مصنوعاً من الجلد بنوابض مهترئة جداً، واكترى شاحنة هوندا نقلته حتى باب البيت. اغتنم سفره إلى مراكش لكي يهاتف كل واحد من أبنائه ليدعوهم للالتحاق به، بل إنه تحامل على نفسه وهاتف حتى جميلة التي كان قد حذفها من حياته، تلك التي تزوجت أوروبياً، ردوا عليه كلهم عبر المجيب الآلي، يا الهي، هذا هو أبوك، نعم أنا بخير، أنا بخير عميم، انتهت الدار، أنتظرك، ستأتين يا بنيتي، سترين، إنها كبيرة، إنها جميلة، إنها أجمل دار في كل البلد. كيف هذا، لن يمكنك ذلك؟ تقولين لا لأبيك الذي قضى عدة شهور يبني لكم قصراً صغيراً! لا، يا ابنتي تعالي في العيد، دبري هذا مع إخوتك، وتعالوا مجتمعين، احذروا الطريق، لا تسرعوا، أنا راض عنك، يا بنيّتي، ليحفظك الله ويعطِك الصحة والسعادة، إلى اللقاء يا ابنتي. في اللحظة التي أوشك فيها أن يغلق الخط سمعها تصيح: لكن هذا هذيان يا بابا؟ ما هي حكاية الدار هذه؟ تظن أني سأتوقف عن عملي، أترك زوجي، وآتي لأجذب الأنظار في دارك المهملة

بالبلد؟ مع ذلك، أَفِقْ، العالم تغيَّر، لم أعد تلك البنت الصغيرة التي تفرحها بالحلوى، انتهى الأمر، دعك من ذلك، انس، انس هذه الدار، وفكرة جمعنا هذه، كما لو أننا ليست لنا حياتنا الخاصة.. هيا بابا، لا تتعب نفسك، وداعاً قبلاتي...

كان مصدوما شيئاً ما، مرتبكاً، لكنه واثق من حدسه، ستأتي.

ترك للآخرين رسالة، وهو الأمر الذي كان يرفض دائماً القيام به، حين كان في فرنسا: «الدار جاهزة، إنها كبيرة، لكل واحد غرفة، تعالوا، أنتظركم لنحتفل كلنا بالعيد الكبير، اشتريت ستة خراف، خروف لكل واحد، سترون، إنها جميلة، واسعة، مليئة بالنور والعطر، ليحفظكم الله، أنا في انتظاركم! إن جئتم بالسيارة كونوا حذرين، كل أهل القرية ينتظرونكم! أخيراً سنعيش جميعاً في كنف عائلة كبيرة»، أعاد طلب رقم هاتف جميلة التي لم تجب، تكلم ربما في الفراغ: «جميلة بنيتي، هذا أبوك يكلمك، لم أفهم ما قلته لي من قبل، أنا أنتظرك في الدار، بالبلد، بمناسبة العيد الكبير، إنها مناسبة لجمع العائلة، لذا تعالي وحدك، أنا أعول عليك».

قال لزوجته: تحدثت مع آلاتهم، أتمنى أن تنقل إليهم جيداً رسالتي، من دون أن تغير فيها، إن لم تلحّ عليهم في عصيان أبيهم.

لم يكن يخامره شك: سيتحقق تجمّعه العائلي كعودة منصفة للأشياء.

قبل يوم العيد، طلب من ابن أخيه، الراعي الأبكم-

الأصم، أن يذهب إلى مدخل القرية، وأن ينتظر مجيء أولاده، وأن يدلهم على الطريق. أثناء ذلك جلس في الظل بالقرب من باب الدار الكبيرة وانتظر. سلّى نفسه بسبحة، وطفق يسبّح بها آلياً لكي يتعلم الصبر. شيئاً فشيئاً صار هادئاً، ساكناً، رغم وخز شك. بقيت زوجته في المسكن القديم، وكانت نائمة. أحس بنفسه وحيداً، شيئاً ما، ربما ليس مهجوراً، وإنما أسيء فهمه بشكل خفيف. لماذا ليست هنا بجانبي، لماذا تفضّل النوم في الوقت الذي سيصل فيه الأولاد؟ قد تكون مريضة، قد تكون لها أسبابها، ستكون غداً سعيدة جداً لرؤية كل أطفالنا مجتمعين في هذه الدار الجميلة، وستشكرني. عندنا لا نقول شكراً، لكننا نظهر فرحنا بحركة، ابتسامة. طيب، لا أذكر أنني ضحكت مع زوجتي، لا انفجارات ضحك أبداً مثلما يفعل الآخرون، ولا ألفة، لا نتحدث كثيراً في ما بيننا، ولا أتذكر أيضاً أنني ناقشتها طويلاً. أعتقد أننا متفقان في كل شيء، لم نتخاصم أبدا، هذا طبيعي، إننا متزوجان، هذا هو الزواج: المرأة متفقة مع زوجها في كل الأحوال، هكذا تجري الأمور عندنا، لكن في هذه الحالة، في هذه الليلة، لا أفهم لماذا ليست بجانبي، لم تَرِقْ لها الدار؟ لم تقل لي شيئاً، أتصور أنها تجدها واسعة جداً، ولها الحق في ذلك، ربما، لكن دار العائلة ينبغي أن تكون كبيرة. أعرف، إنها لا تشبه أي دار أخرى في كل القرية. خافت زوجتي من العين الحسود، والدار مرئية من كل الجوانب، لا بد أنها متعبة، أو هي تصلي لكي يهدي الله أولادنا إلى طريق الدار. أنا أعرفها، إنها لا تفكر في الأذية، لكنها لا بد أن تكون

منهمكة في القيام بما يتوجب فعله لكي ينجح مشروعنا: حرق البخور، دلق الحليب في كل ركن في الغرف، رمي الملح في المدخل، تعليق طلسم في أغصان الشجرة الوحيدة بالقرية، الدوران سبع مرات حول ديك مذبوح، توظيف عدة سحرة خيّرين لكي ينقذونا من النحس، الحسد، الغيرة، المشاكل التي يخلقها أعداؤنا.. أنا ليس لي عدو، لا أعرف عدواً لي، إنها ظلال تمرّ وتترك خلفها روائح مثيرة للغثيان. لم أفعل شيئاً ليكون لي أعداء، أنا متواضع جداً، بسيط جداً، حتى إن حسد الآخرين يتجاهلني، أنا أصغر من أن يعنى بي الحسد.. لزوجتي رأي آخر، إنها تلجأ دائماً إلى هذه الممارسات التي لا تزعجني، بيد أنه ينبغي الحذر، إننا لا نعرف أبداً.. آه! العين الحسود! يظهر أن الرسول نفسه أقرّ بوجودها! العين التي ترى بحسد، أو بحقد، هل يمكنها أن تسقط أحداً؟ هذا غير ممكن. بالنتيجة، أنا أؤمن بذلك، ولا أريد أن أفرط في إيماني به. ذات يوم، حدق بي شخص من الجامع وقال لي: أنت، أنت متبوع، نظرت ورائي، لم يكن هناك أحد، بدأ يضحك لكي يهزأ بي، لكن، لا، إنك متبوع من طرف العين، عين شريرة كبيرة هكذا، الأمر بيّن، إنك محسود، أحدهم يريد لك الشر، خذ، خذ أوراق النبتة هذه، ضعها في براد للشاي واشرب عصارتها، ذلك يبعد العين الشريرة، إن أردت مر لرؤيتي، لدي عشب ضد الخوف، نعم، هذا موجود، وهذه المرة اكتشفه أجانب، قيل لي إنهم من إيطاليا...

لا أحد جاء، لا صوت سيارة، لا سحابة غبار، لا شيء، ساد صمت لم يكن طبيعياً. لا طائر، ولا حشرة عبرت في الجو، لا شيء يتحرك، كل شيء صار جامداً، حتى يمكننا القول إن كل شيء، ويتدخل علوي، صمت، وغلف صمته الداخلي صمت العالم. كان مرهقاً، لكن القلب مفعم بالانتظار والأسئلة. وحده الدعاء كان يلهج به مثل إرادة أخيرة. مالت الدار، وجعلها ظلها تبدو أكثر ضخامة، تبدو مهددة تقريباً. كانت السماء مضاءة، النجوم تلمع وتسبّب لمحمد ضرباً من الدوار، الانطباع بأنه في سفر، وأنه معلق بين السماء والأرض. حين ينظر إليها كان يرى شخوصاً، طُرُقاً، خطوطاً بيضاء. كان يحدق في القمر، ولا يرى أي واحد من أبنائه. تقول إشاعة إننا يمكننا أن نرى في القمر من نحب. هو لم يكتشف أي إشارة لذلك. كان القمر معتماً. وكان محمّد ينام، ينقاد إلى غياب للحظات. من المستحيل النوم، كان يترصد، العين تتقرى الأفق، القلب منقبض والرأس ثقيل. لم يعد يحس برجليه، ولم يعد ينتبه إليهما، الانتظار كان بالنسبة له امتحاناً مرهقاً، لكنه ممزوج بالأمل. . . نادراً ما انتظر أحداً، هذا ذكّره بالانتظار في أروقة الإدارة المغربية والفرنسية أيضاً، في أروقة المستشفى حين كانت زوجته تلد. لم يكن يروح ويجيء، بل كان يجلس في دكة، ولا يتحرك أبداً. ذات مرة سألته ممرضة إن كان يريد أن يحضر عملية الولادة، لا، لا نفعل هذا، سيدتي!

كان واهناً ولدقائق نسي ما يقوم به. كانت له طيبة رجل لا يعرف الكذب، ولو مزاحاً، أو لإضحاك أولاده. لم يكذب

أبداً. كان طيباً، ولا يشغل باله بأقوال هؤلاء وأولئك، رجل طيب بضعف يُرى في وجهه. ذات يوم قالت له إحدى بناته ذلك: يُلاحظ أنك ضعيف! كانت ملاحظة فقط وليست سبة. لا ينبغي لطفل أن يفقد الاحترام الواجب لوالده، الأمور هكذا، كان قد تساءل لماذا، في عقول أطفال اليوم، الطيبة علامة ضعف، هل ينبغي أن يكون الواحد قاسياً متسلطاً وظالماً لكي يكون قويا، لكي يُحترم ويُعجَب به؟

انتظار نهاية الليل. كأن كل شيء سيصير بسيطاً في الصباح. انتظار الفجر، شحوب السماء، تعب السماء، وتوطين النفس على أداء الصلاة الأولى في اليوم. انتظار أن تنغلق العينان على آخر نور. الانتظار، وأن لا تقول شيئاً، وأن لا ينفد صبرك، وأن لا تحتجّ. أن تنزوي في صمت، في هذا الانتظار الذي لم يكن يرى نهايته. عبور الليل كما نعبر حاجز شرطة، كما نجتاز امتحاناً، الذهاب إلى نهاية الليل، عبور بحيرات مجمّدة، صعود جبال، الانتقال من شجرة إلى أخرى. تجنّب الأحجار الكبيرة، الحيوانات المتوحشة، الأشخاص الأشرار. تجنب التحقيقات وخصوصاً ألا تندم، وألا تحس بالتعب. جعل الليل صديقة ورفيقة، وترك الذات تتدثّر بالغبار والضجر.

كانت المرأة بيضاء ملفوفة بإزار أبيض. اقتربت من محمد وهي تمد له يدها اليمنى إشارة أن ينهض ويتبعها. فتح عينيه على سعتهما، لم يطرح على نفسه سؤالاً، وانقاد لهذه الدعوى الغريبة. كانت المرأة خفيفة تسير على أطراف أصابعها، كما يفعل الراقصون. كانت تمسك بيديها الباردتين يدي محمد

الكبيرتين الصلبتين، وتجذبه نحوها، كأنها تخشى أن تفقده في الطريق. كان يتبعها مبتسماً، وربما فرحاً، وصار هو أيضاً خفيفاً. كان يعرف أنه بصدد حلم، وكان يقول لنفسه: من المهم أن لا يتوقف هذا الحلم، ثم أحس بالخجل. في الواقع الأمر يتعلق بحلم في حلم. لقد فكّر في ملاك يأتي له بأبنائه، وبعد هنيهة كانوا يوجدون في واحة لا يوجد فيها ظاهرياً أحد. هناك كان كل شيء أزرق: السماء، الأرض، الماء، النخل، الفواكه، الزرابي، كان ينظر إليها وهو يتفحص هذا الوجه الذي لم يكن غريباً عنه. كان لتلك المرأة أناقة، خفة، لباقة زوجته وقت تزوجا. كان لها أيضاً وجه إحدى بناته، لكن حين كان يقترب منها كان كل شيء يتغير، ويجد وجهاً لم يعرفه أبداً من قبل، برفق، نزعت ثيابه، رجته أن يدخل مغطس حمّام، غسلته، حكّت ظهره، وضعت ماء الورد في الحمام، وهي تجففه داعبت ظهره، ساعديه، يديه، أعطته جلباباً منسوجاً من صوف أبيض، أجلسته على جلدة خروف كبيرة، وجلست بجانبه تناوله فواكه ليأكلها، شرب حليباً باللوز، أحس بنفسه قد هدأت، فنام تحت وقع مداعبات الغريبة الجميلة. ذهب الحلم في الحلم مع الليل.

17

استيقظ في الصباح على صوت بكاء الراعي الذي كان يقول لنفسه أن ليس لنا الحق في هجر آبائنا، وبالأحرى عدم الاستجابة لدعوتهم. كان يعتقد بأن فرنسا آكلة أطفال، ويقول لنفسه إنه، وفي كل الأحوال، كان محظوظاً لأنه لم يغادر البلد أبداً. كان يبكي على كتف محمد وحيداً، وبقدر ما كان يبكي، كان يحس بأن حزناً كبيراً سيغمر محمد. كان ينظر إلى الدار التي تظهر له كجبل، ككومة من الأحجار لا فائدة منها. لم ير في حياته مسكناً بهذا الكبر، ولا في المدينة. وقال لنفسه إنها كبيرة كبر قلب محمد، ثم غادر وهو يمسح دموعه.

أما بالنسبة لمحمد، فلم ييأس من رؤية أولاده ينزلون في ظلام الليل. لم يتحرك رغم نداءات زوجته التي كانت إلى جواره، كان هناك، جالساً في الكرسي القديم المصنوع من الجلد، والذي اشتراه من سوق الخردة في مراكش، جامداً، أبدياً، أمام دار كبيرة فارغة، وسط منظر قاحل تكنسه ريح متكتمة، محاطاً بصمت ثقيل. وفي منتصف الليل حاولت

زوجته أن تقنعه بأن يدخل، لكنه لم يكن يريد سماع أي شيء، فوضعت فوق كتفيه غطاء صوفياً منسوجاً من طرف نساء القرية، وضعت بالقرب منه خبزاً وزيتوناً وقارورة ماء. لم يقل شيئاً، كان وجهه مجمداً، تقاسيمه حزينة، ويتعذر سبره. فكرت في أنه سيتعب، وأنه أخيراً سيدخل إلى الدار. كان الجو طرياً، والليل ناعماً، ولم يكن هناك أحد في المسرب الرئيسي. غفا، وتراءت له أحلام رأى فيها الظل الأسود يأخذ يد الظل الأبيض، يد مقرئ القرآن، يد كبيرة ورقيقة. كانت الظلال ترقص حول قبر، قبره، رأى نفسه في حفرة، مدفوناً بينما هو ما يزال يتنفس. كان يحاول أن يتحرر من الكفن، لكن من دون جدوى، تلقى تراباً في وجهه، ثم أحجاراً كبيرة، ثم سُدّت الفجوات، بالإسمنت. جرت العملية بسرعة شديدة. صمت ثم توقف قلبه. صحا متنفضاً، وشرب شربة ماء. صار الليل كبيراً، حالكاً، وعميقاً. كان يريد أن ينهض ليتبول، لكن شيئاً ما، أو أحداً ما كان يمنعه. لا رغبة له في مناداة زوجته، لذا تبوّل في سرواله، شعر بالعار، حاول مجدداً أن ينهض، وأحس بأنه مسمر في هذا الكرسي الملعون الذي كانت تملكه عائلة استعمارية قديمة. بعض النوابض خرجت من الجلد، وكانت تؤلمه. صارت حركاته بطيئة جداً، وأعضاؤه ثقيلة وعرف تنفسه اختلالات، وأحس بثقل الأحجار والإسمنت فوق كتفيه. تذكّر أنه، في هذه اللحظة، يبعث الله ملكين لتسجيل آخر كلمات الميت. انتظرهما، وقرر أن يقول كل شيء، أن يعترف بكل شيء، أن يلح أن شيئاً ما قتله، وأن موته لم يكن طبيعياً، وأن

أحدهم دفعه في الحفرة، ضربه برجله، وهو يسخر منه ومن داره، لكن الملائكة لم تأت، كان يحس بالخزي، لماذا سيكون المسلم الوحيد الذي يحرم من زيارة الملائكة؟ إلا إذا كان كل هذا لا يعني شيئاً، وبالتالي فقد ضللوه وسخروا منه. كانت يداه متصلبتين بلا حراك، ورأسه أيضاً، أحس مجدداً بالسائل الساخن للبول يسيل على طول رجليه ولم يعد قادراً على إيقافه، كان مثل سقاية ماء دافئ، لم يعد يحس حتى بالخجل، ماذا يفيد الاغتسال، التطهر، حلق الوجه، التعطر، ولبس اللباس الأبيض؟ لا أحد سيأتي، لا أحد سيتذكره.

ينتهي الرجل، الذي يُهجَر، بأن تنبعث منه رائحة كريهة، كان محمد يتعفن من كل جانب، ويصدر رائحة زنخة، كل جسده كان ثقيلاً. نجح في رفع يديه، وأحس بأن بإمكانه الحركة. لم يعد محكوماً عليه بالشلل والجمود، وخصوصاً القيام بحاجياته الطبيعية في سرواله، نادى زوجته التي هرعت إليه، ساعدته على النهوض، ثم اصطحبته إلى حلاق القرية، ثم تكلف به أحد إخوانه لكي يأخذه إلى الحمام، اغتسل من هذه الليلة المريعة، من تلك الليالي التي يحسبها على حفار لحده. كانا وحدهما في الغبش، لا يتكلمان، وكان يحك جلده ليتخلص من تلك الحادثة التي لها طعم الرماد. خال أنه رأى الخيال الأسود يمر، ثم طمأن نفسه بأن ذكر الله. قال لنفسه: لو كنت في فرنسا لكنت الآن في مستشفى، وسينكب أطباء واختصاصيون على ملفي، ويعطونني أدوية للنوم بدون كوابيس، وربما سيدعون عائلتي للمجيء لكي يكونوا بجانب وسادتي.

فرنسا بلد رائع لأنها تتكفل جيداً بالمرضى. هنا، من الأفضل ألا تضع الرجل في المستشفيات. هذه نصيحة صديق؟ أفضّل الحمّام على المستشفى.

خرج من هنا، كما لو أنه رجل آخر، لم يعد مستعجلاً ولا متوتراً، جدد صلته مع الزمن، وتركه يعمل عمله، ولم يهجر، قط، فكرته الراسخة. قضى اليوم في المسجد حيث التقى بمعارف قدامى، أناس لم يهجروا أبداً القرية، ويعتقدون أن العالم ينتهي في طرف المسرب. كانوا يصلّون بشكل آلي، يغمغمون أشياء الله وحده كان بإمكانه فهمها. لم يكن محمد مندهشاً، كان يقول لنفسه بأنه كان بإمكانه أن يصير مثلهم. وفي الليل، استقر مجدداً في الكرسي، الذي يعود للعصر الاستعماري، والذي حرصت زوجته على تنظيفه، كان يحس بنفسه على أحسن حال رغم النوابض التي تزعجه، وجلبت له زوجته الأكل، وأعطته راديو صغيراً لكي يسمع الموسيقى. كانت إحدى المحطات ترسل موسيقى فظة للشباب، أطفأ الراديو، وتذكر الناي الذي كان يستعمله حين كان راعياً، ابتسم، كان ذلك الوقت بعيداً، ورغم ذلك خال أنه سمع نايا، كان صوته يأتي من الجهة الأخرى للربوة. لقد أعطى النقود للراعي ليذهب إلى المدينة ليشتري منظاراً من عند الشخص الذي باع له الكرسي. كان يضعه في حجره، يثبت نفسه في قلب الكرسي، وينتظر أدنى صوت أو حركة لكي يستعمله، لم يكن يرى شيئاً في الليل، لكن وجود المنظار معه يطمئنه. أغمض عينيه، يداه موضوعتان على المنظار، وكان نومه

مضطرباً، والبدر كامل تقريباً. حلم حلماً كان يعرفه جيداً، لأنه رآه عدة مرات، كان وسط فضاء واسع، أبيض، ولم يكن بإمكانه أن يتحرك، رأى في البعد ظلالاً تتقدم، لكنها لا تصله أبداً. إنه حمار ميت يجثم على كتفيه، ويثبّته على نحو مثير للحنق. كان هذا الثقل فوق جسده، والانطباع بأنه ممنوع من الحركة من طرف قوة خارجية يخيفانه. حاول أن يطلب النجدة، لكن صوته اختفى. يسمى هذا الكابوس «حمار الليل»، قال لنفسه، في النهار تكون الحمير جد لطيفة، لم يعد يحلم بالمرأة التي تلبس لباساً أبيض وواحتها، لكي يصل إليها ينبغي أن يعبر حلماً يصب في حلم آخر. صار خياله فقيراً، وصارت أحلامه خطاطات لما يتمناه في النهار والليل.

مع طلوع الشمس، أراد أن ينهض ليصلي صلاة الصبح، ومرة أخرى كان كأنه مثبت، لم يلح، أدى صلاته بعينيه، كما لو أنه سُمِّر في السرير إثر مرض خطير. أنا مريض، نعم، لكن بماذا؟ هذا المرض ليس له اسم، يأتي من دون أن ينذر، ويجتاحك من جميع الجهات. هنا لا أحد قادر على كشفه أو تسميته. لو كانت لدي القوة، وخصوصاً لو لم أكن قد أعطيت موعداً لأولادي، لرحت إلى مستشفى پيتي الملاصق لمحطة أوسترليتز، نعم هناك، سيعرفون ما بي، أنا على يقين من ذلك، لكن لا يمكنني أن أخلف موعدي مع أولادي، ينبغي أن يكونوا في الطريق، إنهم هم الذين أراهم في حلم حمار الليل، أراهم بل أعتقد بأنني أسمعهم، لكنهم لا يصلون أبداً، هذا غريب.

ينبغي أن يكونوا محاصرين في الحدود من طرف أحد رجال الجمارك المرتشين الذين يقومون تجاههم بإيحاءات لم يفهموها، كيف تريدون أن يترجم أولادي: دور معنا، دهن السير. إنهم لا يعرفون هذه الصيغ التي طالما سمعتهما في حياتي. ببضع أوراق نقدية كانوا سيكونون هنا منذ مدة، لكن أولادي لا يعرفون هذه السمسرات القذرة.

مع أولى أشعة الشمس، تنبه إلى أن رائحة كريهة تصدر منه، قال لنفسه: رائحة كريهة لرجل ترك وحيداً. جرح لامرئي، من الصعب ضبط مكانه، كان يؤلمه، لم يكن يحس بالألم في القلب، وإنما في الكبد، رغم أنه لم يأكل شيئاً. لفرط ما كان يحدق في الأفق، صارت رؤيته مشوشة. انغرس كرسيّه ببطء في الأرض، لم ينتبه لذلك إلا حين حاول أن ينقله إلى موقع آخر، وبدون تدخّل من أحد كان الكرسي القديم قد ولج الأرض، كمركب قديم جنح إلى شاطئ مهجور، كشيء لم يعد يصلح لأي شيء. كان الكرسي يدخل في الأرض ببطء، كان الجلد قد تهالك، وتمزق وتحولت النوابض إلى نصل قاطع ما إن يتحرك حتى تجرحه، دم مخلوط بالبول والدموع. كان محمد يبكي مثل طفل، ولا يستطيع التوقف. لم تعرف زوجته ما تفعل، ذهبت إلى مراكش لتهاتف أولاده.

18

خانقة كانت الرائحة التي تصدر عن محمد. هل كان يرفض أن يغادر كرسيه، أم أن شيئاً ما أو أحداً ما يمنعه من ذلك؟ كان الذباب يطوف من حوله مولداً صخباً غريباً. كان الذباب كبيراً، بعضه يهجم عليه كطريدة تركت هناك لتأكلها الكلاب. وشاركت الزنابير في الهجوم. لم يتحرك محمد. كل أفراد قبيلته تداعوا يرجونه أن يغيّر موقفه فيغادر هذا الكرسي الملعون، ويغتسل ثم ينتظر في الدار. ولأنه عنيد ومصمم، فقد رفض أن يأكل أو يتكلم. كانت بعض القطط الأليفة والكلاب الضالة وثعلب، يحومون حول الدار. بل شوهد حتى متسولون جاؤوا من قرى أخرى يحومون، هم أيضاً، حول الدار. وكانت هناك طيور سوداء من آكلي الجيف تطير فوق السقف. خاف أهل القرية، فراحوا يطلبون من الله الرحمة والمغفرة، وتلا من هو أكثر منهم حكمة، الآيات الست من سورة «الناس». «قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنة والناس». ثم عاد بعد ذلك ليتلو الآيات الأخيرة من سورة «التوبة». «لقد

جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تولوا فقل حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم».

كان لهذه الآيات وقع مهدّئ على محمد، صار وجهه ساكناً، واختفت تجاعيده واحدة واحدة، وربما، في تلك اللحظة بالضبط، نزل إلى أعماق روحه، قام بتلك السقطة التي مكنته من أن يتعالى للقاء السلام الأبدي.

نجح قريب في جمع القبيلة التي صلَّت من أجل روح محمد الذي أسيء التعامل معه من طرف المنفى وفرنسا: محمد رجل ضائع، إنه يعاني. فرنسا أخذت أبناءه. فرنسا أعطته عملاً، ثم أخذت منه كل شيء. أقول هذا لكل أولئك الذين يحلمون بالذهاب للعمل في الخارج. قيمنا لا تساوي شيئاً هناك، لغتنا لا قيمة لها، هناك، تقاليدنا لا تحترم. انظروا إلى محمد المسكين، كان حكيماً، مسلماً ملتزماً، وها هو اليوم بئيس، مهجور، وعلى مشارف الجنون. بل إنه غُلب من طرف الجنون سلفاً. سندعو لكي يعينه الله، سنصلي صلاة الخلاص.

كانت تراتيل الصلاة تصله، لكنه كان قد مضى بعيداً، ومنذ مدة، عن الدار، عن القرية والعالم. عادت زوجته إلى فرنسا، لتقنع أولاده بأن يزوروه، كانت تردد: «إنّا لله، لا شيء نملكه، نحن ملك الله، ليس لنا خيار، هو الذي رسم طريقنا وإليه سنرجع، لسنا إلا عابرين».

بعد مضيّ ثلاثين يوماً، كان قد نحف جداً، حتى إنه فقد

ملامحه المعروفة، وصار يتعذر التعرف عليه، كان ينضح برائحة كريهة، أكثر فأكثر، ولا أحد يقترب منه، صار الكرسي تقريباً تحت الأرض، ومحمد أيضاً، وحده الرأس وجزء من الكتفين يظهران، رغم أن لا أحد اقترب من الكرسي، ليغرزه في الأرض. حدث ذلك بشكل طبيعي، ببطء، ويوماً بعد يوم، كان محمد يحس بهذا النزول البطيء، بدون أن يقوم برد فعل. ربما كان يرغب في ذلك كثيراً، حتى إنه ترك جسده يلتصق بالنوابض، وهو ينزل بكل ثقله ليسرّع السقوط. كان يود أن ينتهي الأمر، أن يرحل، ومن دون أن يعصي الله في الآن نفسه، من دون أن يتحداه بقتل نفسه. كان مسلماً جيداً يرفض الانتحار. كان يدع نفسه تنقاد لحتفها، فلا يقوم بأي جهد ليصعد ويستعيد شغف الحياة. لكن حياته انتهت، ومشاعره كانت أسيرة أنانية أبنائه وفقدانهم للإحساس بما يكابده.
انغمضت عيناه، لم يكن يريد أن يرى محفل العالم. لقد أطفأ الأنوار، وأغمض عينيه وقلبه، ولقد انقاد إلى روحه التي كلفها بأخذه نحو الصمت السامي، لقد تخلى عن كل شيء، على غرار المتصوّف الذي يهجر غلاف الجسد، ليذهب إلى قلب الروح، لقد أودع حياته، ولم يكن ينتظر شيئاً. كان الذباب يأتي ليغترف ما يمكنه من أن يقتات به. لم يعد ينتظر أولاده وإنما الخلاص، الموت الذي يطلبه بصمت من رحمة السماء. عادت زوجته مع نبيل، لم يرد الأولاد الآخرون تصديقها، ولا قطع أشغالهم ليذهبوا لتهدئة رجل تملّكه الهذيان. بدأ نبيل، وقد انتابه الحزن، في الحديث بوضوح، وطلب من الذي يعتبره

والده أن ينهض ويعطيه يده ليذهبا إلى الحمّام معاً. كان يحوم حول الكرسي الذي لا يرى منه إلا مسنديه المتهالكين، وكان ينتظر أن يستفيق محمد من نومه الطويل. أخذ سطلاً مليئاً بالماء الدافئ وغسل رأسه. لكن محمد، الذي كان تنفسه يتباطأ، كان قد شرع في الرحيل. لم يقل كلمة واحدة، اصطنع ابتسامة ثم غرق في نوم طويل. لم يعد يطلب شيئاً من السماء ولا من الغمام العابر. كل شيء صار صافياً وبسيطاً: وأولئك الذين سيموت من أجلهم كانوا قد سقطوا في بئر طفولته. لم يعد يراهم أبداً، أو يميز وجوههم، ولا يسمع أصواتهم. في اليوم الأربعين طمرت الأرض الرأس. صاح أحدهم: رحل! محمد رحل عند الله. للقرية وليّها الصالح، صار لنا وليّنا الصالح. لم ينسني الله، لم تبن الدار من أجل لا شيء ستكون قبره ومزاره، الله أكبر! الله أكبر! أجابته عجوز جالسة فوق صخرة: هكذا لا ماء عندنا، ولا قمح، ولا تيار كهربائي، لكن لدينا وليّ صالح، مكافأة جميلة، سأترككم، أنا سأذهب للبحث عن الظل والماء، لو كان هناك مزار أتبرك به، فسيكون سقاية أو عين ماء، هذه هي الحياة! أنت مجنونة! إننا نعرفك، رأيناك تدخنين، بل وتشربين عنباً مخمراً، لذا فأنت ليس لك حق الكلام، الأفضل لك أن تنحني أمام وليّنا الصالح، ذاك الذي رحل بعيداً ليعود لنا برحمة الله.

لم تعد أي رائحة تنبعث من ذلك القبر الذي حفره جسده طوال تلك المدّة، وطرحت مسألة كيفية تغسيله، كيف يتم

استخراجه من تلك الحفرة وتكفينه. وهم يحفرون صدم الحافرون: كان محمد مكفناً بكفن أبيض معطر بالصندل، وكانت تفوح منه رائحة الجنة. كان تغسيله قد أنجز على أحسن ما يكون. تراجعوا، أخذوا أدواتهم فوق أكتافهم، وراحوا.

كان قبر محمد هناك، أمام باب الدار. في الغد اكتشف الناس أنها طليت بالجير وغرست فوق رأسه شاهدة نحتت فيها هذه الكلمات: «بسم الله الرحمن الرحيم. يرقد هنا مؤمن تقي، لم يعد يعاني، ليتغمده الله برحمته. إنّا لله وإنّا إليه راجعون».

لم يعرف أحد من تكلّف بهذا القبر. يأتي السكان ليتبركوا به، بعضهم يضع هدايا فوق عتبته، باب الدار الكبيرة، ابتعدت الزنابير، والذباب، والقطط، والكلاب أيضاً، ورائحة من عطر الجنة تفوح من القبر. في بضعة أيام تغطّى القبر بعشب ذي خضرة نضرة، ونبتت فيه أزهار برية، وغرس مجهول قربه شجرة جيء بها من بعيد، وكان هناك ظل، ورطوبة، وسلام. هكذا رحل محمد الزماگري، الرجل الذي قتله التقاعد.

باريس ـ طنجة

أبريل 2005 ـ يوليوز 2008.

الطاهر بنجلون

البَلَد

في معظم رواياته يتناول الطاهر بنجلون موضوع الهجرة وصعوبة الاندماج، والحلم الدائم بالعودة لأولئك الذين هاجروا من بلدانهم، وخاصة من المغرب، بعد أن يكونوا قد حلّوا مشاكل صعوبة العيش.

الدِّين، المفاهيم الاجتماعية، اللغة، نمط الحياة، ذكريات الطفولة، الانتماء... كل ذلك، يزيد من الأسئلة التي تعمّق الحيرة. وفوق ذلك يأتي الأولاد .. الأولاد الذين ولدوا في "فرنسا"، وليس لهم ذكريات عن "البلد"، ولا يحتملون نمط الحياة والمفاهيم الاجتماعية التي يسعى والديهما لفرضها عليهم..! يفقد محمّد السكينة.. إنهم الأولاد.. تلك الحياة التي يعيشونها.

"سأذهب لأرى طبيب مجانين وسأقول له: أنا مريض لأني أحب أولادي. أي دواء تنصحني بتناوله؟ هل عليّ أن أشرب سيرو مضاد للحبّ العائلي. أو أتناول حبوباً تنسيني أن لي خمسة أولاد من بينهم بنتاً ذهبت مع غريب على ثقافتنا، على ديننا، على بلدنا؟ أنا فعلت كل شيء لأربيّهم.."

بعد التقاعد عاد محمد إلى البلد.. وهناك أيضاً ما عاد يمكنه أن يجد السكينة...





المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158
www.ccaedition.com
markaz@wanadoo.net.ma